محمد طاهر الجبلاوي

سادهانا
أو
تحقيق الحياة

لشاعر الهند وحكيمها

رابندرانات تاجور

الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية

فهرس الكتاب

مقدمة

بقلم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

قرأت كتاب « سادهانا » قبل خمس وعشرين سنة ، وكتبت عنه مقالا موجزاً قبل عشرين سنة . وما زلت منذ قرأته أرجو أن تتاح لى الفرصة لترجمته إلى العربية ، أو أرجو أن أراه منقولا اليها ان فاتنى أداء هذا الواجب ، لأنه كتاب لا يصح أن تخلو منه مكتبة القارىء العربى فى هذا الزمان الذى طغت فيه المحنة المادية على كل مكان

أما الاكتفاء بتلخيصه فلم يخطر لى على بال . لأنه من الكتب التى لا يغنى فيها الجزء عن سائر الأجزاء ، ولا يسد الاقتباس منها مسد التفصيل والاستيعاب . ومما قلته حين كتبت عنه — فى ديسمبر سنة ١٩٢٦ — « أننى لست أريد أن ألخص السادهانا لأن الكتاب صلاة والصلوات لا يجوز فيها التلخيص والاقتضاب ، ولست أريد أن أنقد آراءه لأن هذه الآراء إن هى إلا زهرة روحية والزهرات لا تطيب على النقد والتحليل . ولكننى أدير سمع القارىء إلى نغمات من تلك الصلاة ، وألقى ببصره على منظر من تلك الزهرات وأومىء له إلى مدخل المحراب أو ناحية الروضة ، وهو بعد ذلك وما يشاء من اكتفاء بما رأى أو اتجاه إلى طلب المزيد . . »

فالآن يسرني أن المحراب كله يقام في ساحة اللغة العربية، وأن أبوابه تنفتح لمن يلج منها إلى قدس أقداسها ، وأن هذه المأثرة قد تمت على يدي صديقنا الاستاذ الجبلاوى ، الذى ينطوى على خير وطيبة يرشحانه لفتح أبواب هذا المحراب

وقد جاءت الترجمة فى أوانها وعند مسيس الحاجة اليها

لأن العصر الحاضر هو عصر التعاون الانسانى على إنهاض الحياة الروحية ، وليس أولى من الشرق بالمشاركة فى هذه الرسالة وليس أولى من تاجور بالتعبير عن روح الشرق — أو روح الهند خاصة — لتقريبها من عقول الأمم على اختلافها . لأنه هندى غير محصور فى حدود قومه ولا فى حدود عقيدته الموروثة . أو هو « هندى عالمى » و « شرقى إنسانى » يحسن الخطاب ويصل إلى قلب الانسان حيث كان

من أمثلة ذلك رأيه فى معضلة الشر التى حارت فيها عقول الحكماء وعالجها كل حكيم بما استطاع من بحث والهام

فقوم تاجور — سواء كانوا من البرهميين أو البوذيين — يقولون بوجود الشر فى الحياة ولا يحاولون إنكاره أو التشكيك فى آلامه ومو بقاته . ولكنهم يحلون معضلته بالذهاب إلى تناسخ الأرواح ، ويعتقدون أن هذا التناسخ يمنع الظلم والتفاوت بين

الناس . لأنهم ينالون نصيباً واحداً من الصلاح والطهارة فى مجموعة الأطوار التى يمرون بها منذ نشأتهم فى عالم الجسد إلى مرجعهم آخر الأمر إلى سكينة الأبرار

أما تاجور فانه يجعل للنفس عزاء آخر فى هذه المعضلة يرضاه المؤمنون بتناسخ الأرواح والمفكرون لهذه العقيدة من المتدينين أو غير المتدينين . فيقول ان الشعور بالألم مزية الشخصية الانسانية لأن هذه الشخصية إذا كانت توافق ما حولها كل الموافقة فهى مندمجة فى الطبيعة ضائعة فى أطوائها . وإذا كانت مستقلة عنها فلن يتحقق هذا الاستقلال إلا بالاختلاف بين الانسان وماحوله ومن هنا يأتى مايؤلمه و يناقض أهواءه ، ولولاه لما تأتى له ما يرضيه و يطابق هواه

وعنده أن العناية الإلهيـة لم تسمح بالألم إلا وقد أعانت النفس الانسانية عليـه بقوة الحب . أو كما قال فى بعض صلواته وأناشيده : « كل من أعطيته رايتك فقد أعطيته القوة التى تعينه على النهوض بها . فأنت تعطيه الحب ليقوى على مجهود خدمتك وانى من ثم لأشـتاق من أعماق قلبى أن أنجو من الألم بالألم ، وليس اشتياقى أن أبلغ الخـلاص باجتناب الألم الذى هو هدية من يديك . . »

وليس معنى هـذا أن الألم هو كل ثمرات الحب والعبادة الروحية ، فأنه ليقول فى أغنية أخرى . « ان الخلاص لاينحصر عنى فى نسكران الحياة . فانى لاستمتع بحلاوة الخلاص فى قيود الحبور التى ليس لها انتهاء »

ويشبه هذا المعنى ما قاله فى السادهانا وجاءت ترجمته فى الصفحة الحادية والاربعين من هذا الـكتاب حيث يقول : « لقد حذرت من يستمعون إلى ، وأعيد تحذيرهم مرة أخرى من أن ينخدعو بذلك الرأى الذى يقول أن معلمى الهنـد ومرشديهم يشيرون إلى نبذ الحياة والنفس حيث الفراغ والحياة السلبية . فقد كان مقصدهم تحقيق الروح أو بعبارة أخرى الوصـول إلى الحياة بالمعنى الصحيح . وقد كان المسيح يعنى هذا حيث قال : ما أسعد الودعاء فأنهم سيرثون الأرض . وانه ليعنى هذه الحقيقة وهى أن الانسان حين يتخلص من كبريائه يصل إلى ميراثه الحق وليس عليه أن يناضل بأ كثر من هذا ليحتل مكانه فى الحياة . فالخلاص أمامه حيث سار بحق روحه الخالدة ... »

فتاجور لا ينـكر الحياة كما ينـكرها نساك الهند المعرضون عنها ، ولـكنه ينـكر الأنانية التى تعزل الانسان فى العالم فتطمس وجوده وتصيبه بفقر فى الوجدان يهون إلى جانبه فقر الفقراء فى

الصوامع ، وحرمان الدراويش من الترف والمتاع

ومن شر ضروب الأنانية فى رأيه أن تتنكر الحياة لأننا تنكر ما يصيبنا فيها من ألم . . . فأننا فى غنى عن هذا الانكار إذا تذكرنا الحب كما نذكر الألم . ومتى تذكرنا الحب خرجنا من ضيق الأسر إلى باحة الحرية . وشعرنا بغيرنا وشعرنا بالعالم من حولنا . فتحققت لنا « أرواحنا » وذواتنا على أكمل مثال

ولو أن تاجور تكلم بلغة الزهد والفناء كما تكلم نساك الهند قديما لما أفاد

ولو أنه تكلم بلغة الأنانية والشقاق كما يتكلم دعاة المادية الحديثة لما زاد شيئا على ضجيج هذه الدعوة الهادمة ، وهى شر من دعوة الزهد والفناء

ولكنه استخرج من روح الهند رسالة يقبلها من يحارون بين الدعوتين . فقال ما يحسن به أن يقوله فى هذا الزمن ، بل قال ما يحسن أن يسمع دون غيره فى عهد التعاون بين بنى الانسان على تقريب العقول واطلاق الأرواح من أوهاق الأثرة والطمع ، وظفرت العربية على يد صديقنا الجبلاوى بنصيبها من هذه الرسالة الشرقية الانسانية ، وهى أقرب اليها من جملة اللغات التى عرفت هذا الكتاب ؟

عباس محمود العقاد

كلمة المترجم

كتاب سادهانا نفحة من نفحات الشرق الزكيـــة العطيب المشرقة النور ، بعثها شاعر الهند وحكيمها رابندرانات تاجور من روح الهند القديمة وحياة أنبيائها ومصلحيها . وقد خلع عليها صبغة الجدة من روحه فامتزجت الروحان واتحدت الحياتان وخرجت منهما روح واحدة وفكرة متحدة هى « سادهانا »

وسادهانا هى تحقيق المثل العليا فى الحياة ، أى جعلها حقيقة وتتحقق الحياة فى الحب وهو سرور الانسانية وروحها . ولا تبلغ الروح هذه المرتبة إلا إذا اتحدت بسائر مافى الكون وانفصلت عن النفس الذاتية التى تعوقها برغباتها الشخصية عن الوصول الى غايتها التى لاحد لها . واندمجت فى براهما مصدر الخير والسرور

وتتحقق الحياة المثلى فى العمل ، فالعمل هو المظهر الخارجى للروح . والروح لاتستطيع أن تعيش على احساساتها الداخليـة فحسب بل تعيش كذلك لأظهار مكنوناتها فى العالم الخارجى ، ولا يكون ذلك إلا بالعمل . والحق هو الوحدة التى تجمع بين الروح فى الداخل وفى الخارج ، فى الباطن وفى الظاهر . وتجمع بينهـا

وبين سائر ما فى الكون ، حاضره وماضيه ومستقبله .

وليس هذا الكتاب من قبيل البحث الفلسفى أو القضايا الكلامية فهذا مالم يذهب اليه تاجور ولكنه فكرة عاشها المؤلف وحللها ودرسها بالعمل . كما كان يفعل من تقدمه من الأنبياء والمصلحين فى الهند . لذلك فهو لا يؤمن بالكلمة كما يؤمن بالفعل ولا يؤمن بالعبارة قدر إيمانه بالفكرة .

وقد رأيت من واجبى وأنا أترجم هذا الكتاب أن أسير على مذهب مؤلفه فقد قرأته وعشت فيه ثم بدأت ترجمته وأنا متشبع بفكرته ممتلىء بروحه ولم أشأ أن أتقيد بقيود الألفاظ أو اقع تحت أسرها فهذا ماينافى وروح الكتاب وتعاليم صاحبه وإن كنت قد نقلت كل عبارة من عبارات الكتاب إلى مايقابلها فى اللغة العربية

وتاجور معروف عند قراء الضاد ، فقد زارنا فى مصر والقى فيها عدة محاضرات وكتبت عنه سائر الصحف والمجلات العربية إلا أنه لايفوتنى أن أذكر هنا أنه ولد فى كلكتا سنة ١٨٦١ وتلقى دروسه فيها وفى أوروبا واشتغل بادارة مزارع أبيه و بنظم الشعر وأنشأ مدرسته النموذجية المشهورة فى بالبور من بلاد البنغال سنة ١٩٠١ وجعل كل همه أن يروج لها ويرفع من شأنها وقد طاف بلاد أوروبا يلقى محاضراته وينشر تعاليمه وتعاليم أسلافه ويشيد

بمجد الهند وجمع كثيراً من التبرعات لهــذه المدرسة ومنح جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩١٣ ومنح لقب سير سنة ١٩١٥

وقد كتب كثيراً من الأشعار والتمثيليات والقصص بالبنغالية والانجليزية ومنها « جيتانجالى » و« الهلال » و « ملك الظلام » و « البريد » «الوطن والعالم» وكتب « ذكرياتى » والقومية ومات سنة ١٩٤١

ورأيت من تمــام الفائدة أن أشرح ما تيسر من الــكلمات والإشارات التى تحتاج إلى شرح ولم أتعرض لبعض الكلمات التى تتضح معانيها فى سياق الكلام .

هذه كلمة وجيزة أكتبها عن كتاب هو فى الحق من أمهات الكتب التى ظهرت فى العالم بل أنه نوع فريد فى بابه بين تراث الفكر الانسانى وأترك تقديم الـكتاب لأستاذى وصديقى الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد . الذى كان أكبر عون لى على اتمام هذه الترجمة ، بما لاقيته من تشجيعه الذى كان بمثابة حقنة فى الوريد فلم تمض لحظات حتى تغلغل أثرها فى كيانى ، وامتلأت به نفسى ، ولما يزل يتابعنى حتى انتهيت من ترجمة هذا الـكتاب فله الشكر فى البدء والنهاية.

محمد طاهر الجبلاوى

الانسان والكون

نشأت المدنية الأغريقية القديمة بين جدران المدينة ، وفى الواقع أن سائر المدنيات الحديثة قد وجدت مهادها فى الآجر والطين.

إن هذه الجدران لتطبع أثرها العميق على عقول بنى الانسان، حتى لقد شغلت بصائرنا بالنظرية القائلة فرق تسد ، فاعتدنا أن نحيط فتوحنا بالحصون ونفصل بعضها عن الآخر .

ونحن بهذا نحول بين أمة وأمة ، و بين ثقافة وثقافة ، و بين الانسان والطبيعة . وقد نما فى نفوسنا شك فى كل ماهو خارج عن الحدود التى أقمنا بناءها بأيدينا . وأصبح كل شيء فى الحياة وهو يناضل جهده ليحتل مكانه من تقديرنا .

لقد كانت الهند أرضاً ذات غابات شاسعة ، حين دخلها أول فاتح من الآريين . وسرعان ما انتفع بها الوافدون . فقد أمدتهم تلك الغابات : بالمأوى الذى يقيهم حرارة الشمس المهلكة والاحراش التى يتحصنون بها من العواصف الاستوائية الجائحة ووجدوا بها مرعى لأغنامهم ووقوداً لنيرانهم المقدسة ، وتيسرت لهم فيها الأداة التى يستخدمونها فى بناء أكواخهم .

وقد استقرت العشائر الآرية المختلفة والرءوس من أساقفها، فى اصقاع الغابات المتعددة، حيث تتوافر وقاية الطبيعة ويكثر الطعام والماء .

وهكذا نشأت مدنيتنا فى الهند بين الغابات، ولقد اتسمت بطابع معلوم من هذا المنشأ وتلك البيئة . . . كانت تكتنفها حياة الطبيعة المترامية الأطراف، فتغذت بغذائها، واكتست بلباسها، وكان لها أقرب الصلات وأوثقها بمظاهرها المختلفة .

وقد يظن أن مثل هذه الحياة تفضى إلى البلادة فى التفكير، وتؤدى إلى أضعاف عوامل التقدم، نظراً لانحطاط مستوى العيش . . . بيد أننا نجد أن حياة الغابة فى الهند القديمة لم تتغلب على عقل الانسان، ولم تكن لتضعف من نشاطه، وقصاراها أنها وجهته وجهة معينة .

وكان لاتصاله الوثيق بالطبيعة المتدفقة أثره فى تحرير أفكاره من الرغبة الجامحة فى بسط نفوذه وإقامة الحواجز والتخوم حول ما يمتلك .

وأصبح همه فى الحياة أن يعرف لا أن يتملك . وأن يزيد فى مداركه، بالتمشى مع ماحوله والتعمق فيه . وقد أحس أن الحق

هو الوجود الشامل . وإن ليس فى الحياة شىء منفرد بذاته . وأيقن أن الطريق الوحيد للوصول إلى الحق هو أن تتلاشى فرديتنا وتندمج فى كل ماحولنا من الكائنات . ولقد كان هم سكان الغابة من حكماء الهند الاقدمين أن يدركوا تلك الوحدة الكبرى التى تربط بين روح الانسان والعالم .

وجاء على تلك الغابات حين من الدهر فتحولت إلى حقول مزروعة ، وظهرت على جوانبها مدن ذات ثروة ، وقامت دول كبيرة تتصل بسائر قوى العالم العظمى . ولكن قلب الهند حتى فى تلك الأيام ذات المجد المادى ، كان يتطلع إلى الوراء على الدوام ، متجها بحبه الى تلك المثل القديمة ، التى تدعو الى معرفة النفس والى العزة التى يعرفها فى حياة الغابة البسيطة . ولقد استمد وحيه الأعلى من حكمتها الخالدة .

وقد يرى الغرب من عوامل فخاره أن يخضع الطبيعة كما يخال ، كأنما نحن نعيش فى عالم عدو لنا وان علينا أن نغتصب كل مانريد من هذا العالم بحكم نظام غريب عنا من دأبه أن لايجود علينا بشىء . ولقد نشأ هذا الشعور بحكم العادة والتفكير الناشئين بين جدران المدينة . فالرجل الذى يعيش فى المدينة

بطبيعته يخلع ذلك النور العميق الذى يحمل صورة تفكيره على حياته وأعماله الخاصة . ومن ثم ينشأ انفصال مصطنع بينه و بين الطبيعة الشاملة التى يقيم بين أحضانها .

ولكن نظر الهند كان يتجه إلى خلاف ذلك . فهى تنظر إلى العالم والإنسان كحقيقة عظيمة واحدة ، وتصرف سائر اهتمامها إلى الوحدة القائمة بين الإنسان والكون . وقد أدركت أننا لانستطيع بحال من الأحوال أن نتصل بما حولنا اذا كان بعيداً عنا كل البعد . و إذا كانت شكوى الانسان التى يوجهها إلى الطبيعة ، هى أنه ينال كل حاجاته فى هذه الحياة بجهده ونصبه ، فانه ليعرف أن جهده هذا لايذهب سدى ، فهو يحرز بفضله نجحاً جديداً كل يوم . مما يدل على الصلة العقلية التى بينه و بين الطبيعة . فنحن لانستطيع أن نجعل شيئاً ما ملكا لنا الا إذا كان له اتصال وثيق بنا .

نستطيع أن ننظر إلى نهج واحد من وجهتين مختلفتين : الأولى تفصل بيننا و بين مانرغب فيه ، فنسوق إليه مااستطعنا من قوة ، لأنه لا ينال إلا بالقوة القاهرة .

والوجهة الثانية ترى أن هذا النهج هو الذى يصل بنا الى

بغيتنا ، فهو جزء من الهدف الذى نرمى اليه ، وبمواصلة السير فيه ننال ماينيلنا من تلقاء نفسه ، وهـذه الوجهة الأخيرة هى وجهة الهند نحو الطبيعة وعن طريقها نستطيع أن نقرر هذه الحقيقة الكبرى ، وهى أننا فى وحدة مع الطبيعة وأن الانسان يفكر لأن أفكاره فى اتحاد مع الأشياء ، وأنه يسخر قوى الطبيعة لأغراضه ، لأن قواه متحدة مع القوة الشاملة ، وأغراضه فى الحياة لاتتنافى وآغراض الطبيعة .

أما فى الغرب فالرأى السائد هو أن الطبيعة بأكلها شىء يعزى إلى الوحش والجماد . ويرون انفصالا فى الحياة لاتعليل له تبدأ عنده فكرة الطبيعة الانسانية . واعتماداً على هذه الفكرة يعزون كل ماهو وضيع فى ميزان الخليقة الى الطبيعة ، وينسبون كل شىء عليـه طابع الصحة ، فكريا كان أو اخلاقيا . إلى الطبيعة الإنسانية . وأنهم فى هذا كمن يقسم الزهرة والبرعم الى فصيلتين مختلفتين ، ويعزوهما الى عنصرين متناقضين ! ! ولكن العقلية الهندية لم تتردد فى معرفتها بالطبيعة وصلتها التى لاتنقطع بكل شىء فى الوجود .

ولم تكن فكرة اتحادالخليقة لديهامن قبيل التأمل الفلسفى

ولـكن ادراك هذه الوحدة الـكبرى فى الشعور والعمل كان موضوع حياتها . . فبالتأمل والعبادة والحياة التى تحياها ، أتيح لها أن تترقى بوجدانها بحيث أصبح لـكل شىء معنى روحانى لديها . . فالأرض والضياء والفاكهة والأزهار ، لم تـكن عندها من قبيل الظواهر الحسية التى تستخدم وتترك جانبا ، ولـكنها ترى أنها ضرورية للوصول بها الى غرضها الاسمى نحو الـكمال ، كما أن كل نغمة فى السمفونى ضرورية لإكمال لحنها .

لقد شعرت الهند بعامل الفطرة بأن هـذا العالم يحمل معنى حيويا لنا ، وأن من واجبنا أن ندركه تمام الأدراك ، ونجعل بيننا وبينه صلة من المعرفة ، غير مدفوعين فى ذلك بدافع الفضول العلمى أو جشع المنفعة المادية ، وانما يجب علينا أن ندركه بروح التجاوب النفسى ، مستشعرين فى هـذا بشعور لا يقـدر من الفرح والأمن .

يرى رجل العلم أن العالم ليس هو كما يبدو لحواسنا ، ويعرف أن الأرض والماء إنما هما الا ظواهر لقوى مظهرها الأرض والماء .

ويرى الرجل الذى تتفتح عيونه الروحية أن الحقيقة فى أمر الأرض والمـاء هى معرفتنا للأرادة الأبدية التى تعمل على

الدوام ، وتتخذ مظهرا فى تلك القوى التى ندركها من خلف هذه الظواهر ، وليس هذا من قبيل المعرفة فحسب مثل العلم ،ولكنه من قبيل معرفة الروح عن طريق الروح .

ولا يقودنا هذا الفهم إلى القوة كما يفعل العلم . ولكنه يمدنا بالسرور الذى يتولد عن اتحاد الأشياء المتقاربة والوشائج المتصلة

إن الانسان الذى لاتوصله معرفته بالعالم إلى ما هو أعمق مما يوصله اليه العلم ، يستحيل عليه أن يدرك ما يجده الرجل ذو النظرة الروحية فى هذه المظاهر الطبيعية .

فأن الماء ليس فى نظره ذلك الشىء الذى ينظف جسده وحسب ، ولكنه يطهر قلبه ، لأنه يمس روحه .

والأرض ليست ذلك الشىء الذى يمسك جسمه فحسب ، ولكنها شىء يسر خاطره ، فصلتها بنا فوق الصلة الجسمية ، لأنها كائن حى .

واذ كان الانسان لا يعرف صلته بالعالم الذى يعيش فيه ، فهو انما يعيش فى سجن لا تمت جدرانه إليه بسبب . ويتحرر إذا كان يلتقى بالروح الأبدية فى كل شىء فى الوجود . إذ يهتدى إلى عظامة الحياة التى ولد بها فى أسمى مراتبها . ومن ثم يجد نفسه

فى الحقيقة الكاملة ويتم اتحاده بسائر الأشياء . ويلذ للناس فى الهند أن يحسوا بأنهم على اتصال وثيق عما يحيط بهم جسما وروحا . وأنهم يحيون الشمس المصبحة ، والماء المتدفق ، والأرض المثمرة كمظهر للحقيقة الباقيـة التى تضمهم فى أحضانها . لذلك فان (الجيتري) هى ورد تأملاتنا اليومية ، وهى مقطوعة من الشعر تعد خلاصة لسائر ما فى (الفيداس[1]) وبالاستعانة بها يعن لنا أن ندرك الارتباط الجوهرى الذى بين العالم وبين روح الانسان الواعية . ونعرف كيف نفهم الوحدة التى يضمها الروح الأبدى ، ذلك الروح الذى بقدرته تخلق الأرض والسماء والنجوم ، وتشتعل عقولنا بنور من الوعى الذى ما يزال يتحرك وينبعث مع العالم الخارجى بغير انقطاع .

وليس من الحق أن الهنـد قد حاولت أن تخطىء فـكرة اختلاف قيم الأشياء المتنوعة . لأنها تعرف أن ذلك من شأنه أن يجعل الحياة أمرا مستحيلا ، ولم يكن ليغيب عن بالها تفوق الانسان فى ميزان الخليقة . إلا أنه كان لها رأيها فى حقيقة هذا التفوق وما يشتمل عليه . وأنه لم يكن فى مقدرته على الامتلاك

---

(١) من الـكتب الهندية المقدسة .

بل فى قدرته على الاتحاد والامتزاج . من أجل هذا كانت الهند تختار أماكنها المقدسة حيث تتجلى الطبيعة بشىء من العظمة أو الجمال ، حتى يتيسر لفكرها أن ينبعث من عالم الضرورات الضيقة المحدودة ، ليدرك مكانه فى اللانهاية . مما جعل قبيلا بأسره فى الهند يصدون عن التغذى بالحيوان ، لينموا عاطفة التجاوب الشامل فى الحياة . وهذا حادث فريد فى تاريخ الانسان .

وقد عرفت الهند أننا حين نتطوع مختارين فنفصل أنفسنا بالحدود المادية والعقلية عن حياة الطبيعة التى لاتنفد ونجعل الإنسان انسانا فحسب لا انسانا فى الكون . نخلق فى الحياة مشاكل معقده ونسد الطريق أمام حلها ومن ثم نلوذ بالطرق الزائفة التى يضع كل منها أمامنا ركاما لاينتهى من المصاعب

وكذلك حينما زايل الأنسان مكانه المعبد فى الطبيعة الشاملة وسار على حبل الانسانية الفرد . لم يكن أمامه إلا أن يرقص أو يسقط من حالق . وانه لحرى أن يشد على كل عصب من أعصابه شداً متواصلا ليحفظ توازنه عند كل خطوة . فاذا حانت فترة لراحته من هذا العناء الشاق ، لم يكن فى وسعه إلا أن يسخط على العناية ، ويحس زهوا خفياً فى جوانب نفسه ورضاء كلما تصوران أسباب الحياة قد تجمعت للأساءة اليه .

إلا أن ذلك لا يظل إلى الأبد . فالأنسان لابد أن يدرك وجوده الشامل ويعرف مكانه فى اللانهاية . وهو جدير بأن يعلم أنه مهما يجد ويشق لا يستطيع أن يشتار شهده داخل خلاياه . لأن حياته الدائمة خارج جدرانها . وأن الانسان إذا جمل حياته بمعزل عن نفحات اللانهاية الحية الطاهرة وانقلب إلى نفسه يستمد منها قوته وسنده ، سيستحثها إلى درجة الجنون ويمزقها شر ممزق ، ثم لا يلبث أن يأكل بعضه بعضا . واذا حرم الأنسان مكانه فى ساحة الشمول فقد عوذه مميته الكبرى وهى البساطة . وأصبح رجسا وعارا وفقد ثراؤه صفة العزاء وعد اسرافا . وأصبحت كفاياته وهى لا تخدم أغراض حياته لأنها بوقوفها عند غرضها . تصبح حداً نهائيا فى ذاتها . ومن ثم تشعل النيران التى تحترق بها حياته . وتعزف قيثارها على ضياء الحريق المكفهر اللون لذلك فنحن فى تعبيرنا عن النفس نحاول أن نثير لا أن نجتذب وفى الفن نحاول أن نبتدع ونغض الطرف عن مشهد الحق القديم الدائم المتجدد . وقد أهملنا فى الأدب الصورة الشاملة للأنسان البسيط فى عظمته . وبدلا من أن يكون الانسان موضوعا نفسيا أو صورة الوجدان الواسع بما فيه من الشذوذ ، أصبح وهو يبدو فى وهج

نيران مفترسة اللهيب مصطنعة الضياء . واذا كان وعى الانسان مقيداً بعصاقبته مباشرة لنفسه الانسانية فحسب . فان جـــذور طبيعته التى هى أكثر عمقا لاتجد أرضها الثابتة . وما تزال روحه على حافة المسغبة الى الأبد . فهو انما يقيم حلقات من التهيـــج ويضعها مكان الصحة والعافية . ومن ثم يفقـــد ادراكه الباطن ويقيس عظمته بحجمها لا باتصالها الحيوى باللانهاية . ويحكم على قواه بحركتها لا براحة الكمال ، تلك الراحة التى تتجلى فى السموات ذات النجوم ، وفى رقص الخليقة الموقع الأنغام فى تدفقه الذى لاينقطع

كان فتح الهند الأول له شبيه بفتح الغزاة الأوربيين أمريكا لقد وجدوا أنفسهم أمام غابات فطرية وكان عليهم أن يواجهوا قبائل غير معهوده . إلا أن هذا الكفاح بين الانسان والانسان، و بين الانسان والطبيعة قد أخذ حده إلى النهاية ولم ينته إلى نهاية . فقد أصبحت هذه الغابات التى كان يسكنها قبائل الهمج فى الهند معبداً يأويه الحكماء . أما فى أمريكا فان هذه المعابد الطبيعية العظيمة الحية لم يكن لها شأن كبير فى نفس الأنسان ، وان كانت قد فاضت عليه بالثروة والقوة . وربما كانت وسيلة لأمتاعه بالجمال فى بعض الأحيان أو لعلها ألهمت شاعراً حى الوجدان . ولكنها لم تكن لها عندهم

ذلك الامتزاج المقدس بقلوب الناس باعتبارها مقراً للتوفيقات الروحية الكبرى ، حيث تجتمع روح الانسان بروح العالم .

انى لا أود ولو لحظة واحدة — أن أشير بتغيير هـذا الوضع فمن ضياع الفرص أن يتـكرر التاريخ فى كل مكان على نظام واحد ومن أنجع الوسائل فى تجارة الروح تقدم الشعوب المختلفة المواقع ، بشتى نتاجها فى سوق الانسانية ، حتى يتمم كل منها الآخر ويقوم بسد حاجته .. وكل ما أريد أن أقول : إن الهند فى بدء حياتها قد التقت بمثل هذه الظروف ولكنها لم يكن مصيرها لديها الضياع . فقد استطاعت بحكم ظروفها أن تفـكر وتروى وتجد وتحتمـل الآلام ، وأمكنها أن تنغمس فى أعماق الوجود ؛ وتستكشف أمراً لاشك أن قيمته لم تكن لتعرف عند الشعوب التى اتخذت لنفسها سبيلا فى التاريخ يختلف عن سبيلها كل الاختلاف . إن الانسان يحتاج لتمام نموه الى سائر العناصر التى تتكون منها حياته المركبة ، لذلك فان طعامه يزرع فى شتى الحقول ، ويجلب من مختلف المنابع .

وما أشبه المدنية بقالب تعده كل أمة لتصوغ فيـه رجالها ونساءها على أحسن وجه تريده . وان سائر أنظمتها وشرائعها

وما تستحسنه وما تمقته وما تعيه ومالا تعيه ينطبع بهذا القالب .
وتحاول المدنية الحديثة فى الغرب بسائر ما لديها من الجهود المنظمة أن تصل بأبنائها نحو الكمال بالكفاية المادية والعقلية والخلقية . وينصرف جل نشاط هـذه الأمم إلى بسط نفوذ الانسان على كل ما يحيط به . ويبذل الناس كل ما لديهم من قوة ليجعلوا فى حوزتهم كل ما يستطيعون أن يضعوا أيديهم عليه . ليتغلبوا على سائر العوائق التى تقف فى طريقهم إلى الظفر . وانهم ليكرسون حياتهم لمكافحة الطبيعة والتغلب على الشعوب الأخرى . وان أسلحتهم لتزداد عظمة ، وتتكاثر آلاتهم وأجهزتهم وأنظمتهم إلى درجة تدعو إلى الاعجاب . هذا تقدم عظيم ولاشك . ومظهر عجيب ينم عن مقدرة الانسان التى لا يعوقها عائق . تلك المقدرة التى تهدف إلى فرض سطوته على كل ما عداه .

أما مدنية الهند القديمة فلها مثلها الأعلى الذى تنصرف اليه جهودها . فلم يكن من همها الوصول إلى القوة . فقد أهملت تربية قواها إلى أقصى حد . ولم تعن بتدريب رجالها على أغراض الدفاع والهجوم ليتعاونوا على مطالب الثروة ، ويبلغوا السيادة فى الحرب والسياسة .

وقد قاد مثل الهند الذى حاولت تحقيقه خيرة رجالها إلى حياة فكرية منعزلة . وكلفتها تلك الذخائر التى اكتسبتها للانسانية بتوغلها فى أعماق الحقيقة وخفاياها كثيراً فى ميدان النجاح المالى الا أن عملها هذا مع ذلك ربح عظيم ، فقد كان مظهراً كبيراً لذلك الطموح الانسانى الذى لا يعرف له حداً ، ولا يجعل نصب عينيه أقل من تحقيق مالا يدركه الحد .

لقد كان للهند فضلاؤها وحكماؤها وشجعانها ، وكان فيها رجال السياسة والملوك والأباطرة ، ولكن من هم الذين اختارتهم بين هذه الطبقات ؟ .

انهم طبقة (الريشز) [1] ومن هؤلاء الريشز؟ هم الذين وصلوا إلى الروح الكبرى بالمعرفة وامتلأت نفوسهم بالحكمة ، واتحدوا الاتحاد التام بالنفس الباطنة اذ رأوه فى وحدة مع الروح وقد تحرروا من النزعات الذاتية ، لأنهم وجدوه فى القلب . ونالوا الدعة لأنهم رأوه فى سائر قوى العالم . والريشز هم الذين بوصولهم الى الله تعالى من كل جانب وجدوا استقرار السلام واتحدوا بكل مافى الوجود وولجوا حياة الكون .

وهكذا فان تحقيقنا تلك الصلة التى تربطنا بكل ما فى

---

(١) طائفة من المتدينين فى الهند .

الوجود ، وتوغلنا فى صميم كل شيء باتحادنا بالله ، كان يعتبر فى الهند الغاية القصوى والكمال الذى تصبو اليه الإنسانية .

ان الإنسان يستطيع أن يدمر وينهب ، ويستطيع أن يكسب ويجمع ويخترع ويستكشف ولكنه لايعد عظيما إلا لأن روحه تدرك كل شيء . وأشد الدمار الذى يحل بالإنسان ، يحل به اذا كان يضع روحه فى غلاف ميت من العادات المتحجرة . وتحيط به الأعمال كالأعصار العاصف الذى يسد بغباره أجواز الفضاء . لاشك أن هذا من شأنه أن يقضي على روح وجوده فى صميمها . وهى الروح المدركة .

ان الإنسان فى حقيقته لم يكن عبداً رقا لنفسه ولا للعالم ، ولكنه محب . ينال حريته وكماله فى حبه . وهو اسم مرادف للادراك التام . بهذه القدرة على الادراك ، وهذا التوغل فى وجوده يتصل بالروح التى تشمل كل شيء فى الوجود ، وهى كذلك متنفس روحه . وحينما حاول الانسان أن يرفع نفسه إلى قمة الشهرة بدفع من عداه وصده كى ينال صفة يفاخر بها كل انسان ، ينفصل عن هذه الروح . من أجل هذا نجد أن (الابنشاد) [1] يصف

---

(١) من كتب الهند المقدسة تشبه المتون فى العقيدة وتحتوى على أكثر المذاهب الفلسفية .

أولئك الذين أدركوا هدف الحياة الانسانية بأنهم « آمنون » وأنهم « فى وحدة مع الله » ويعنى أنهم فى انسجام تام مع الانسان والطبيعة فهم فى وحدة لاتنفصم بالله .

ونجد شيئاً من هذا فى تعاليم المسيح حيث يقول إن ولوج الجمل فى سم الخياط أسهل من دخول الغنى مملكة السماء ويفهم من هذا أن كل ذخيرة نجمعها لأنفسنا تفصلنا عن غيرنا ، وأن متاعنا الذى نملكه انما هو حد لنا . ومن يتكالب على جمع الثروات تتغلب عليه ذاتيته على الدوام ، فلا يستطيع أن يلج الأبواب التى تؤدى إلى ادراك العالم الروحى ، وهو عالم الانسجام والتوافق الصحيح ويظل محبوسا فى حدود المطالب المادية الضيقة

لذلك كانت الروح الظاهرة فى تعاليم الابنشاد هى : إذا أردت أن تجده . فعليك أن تحتضن كل شيء . وأنت بالسعى وراء المادة تترك كل شيء عن ثقة لتنال الشيء اليسير ، وليس هذا بالطريق الذى يوصلنا اليه . وأنه هو الكمال .

يصر بعض الفلاسفة المحدثين وهم مدينون للأبنشاد عن طريق مباشر أو غير مباشر - غير مدركين هذا الدين — على أن ديانة براهما انما هى شيء سلبى ، أى أنها انكار الكل مافى العالم . وبعبارة أخرى أن الكائن اللانهائى ليس له وجود عندنا

على الاطلاق الا فى عالم ما وراء الطبيعة . . قد يكون هذا صحيحا فيما يتعلق بسنخ من أبناء وطننا . ولكن مما لا شك فيه أنه لا ينطبق على الروح العامة للعقلية الهندية . فهى على النقيض من ذلك . إذ أن وحيها الصحيح هو تحقيق اللانهائى وتوكيده فى سائر الأشياء . فنحن يسرنا أن نرى « أن كل ما فى الحياة فى كنف الله » « انى الحق لله الذى يتجلى فى النار والماء ، ويتغلغل فى سائر ما فى العالم ، ويظهر فى الحيوان كما يبدو فى النبات » أيصح أن يقال أن هذا إله منفصل عن العالم ؟ إن الأمر على عكس هذا فنحن لا نحس عظمته فى كل شىء فحسب ، بل أننا نحييه فى كل ما فى الحياة من أشياء . وان نظرة الانسان الذى يرى الله نحو الكون كما يصفها الأبنشاد ، تدل على شعور المحبة العميق . أن موضوع عبادته حاضر فى كل مكان . وهو الحقيقة الحية التى تؤكد سائر الحقائق . وليست هذه الحقيقة من قبيل المعرفة فحسب بل هى نوع من العباده واننا لننحنى اجلالا لنموناماه ، ثم ننحنى وننحنى إليه . وأنه ليحس قول « الريش » وهو يخاطب العالم أجمع فى تلك العاطفة المفعمة بالسرور بقوله :

« اصغوا الى يا أبناء الروح الأبدى ، يا من تسكنون السموات ، لقد عرفت الكائن الأعلى الذى يتألق نوره فى الظلام » الا نجد

فى ذلك البهجة الغامرة الصادرة عن معرفة ايجابية مباشرة لا تشوبها شائبة من الباطل أو الشعور السلبى .

ويعظنا بوذا بمثل ذلك . وأنه هو الذى نشر الابنشاد فى حياته العملية ، بقوله : « وفى كل شىء فوقنا ، وتحتنا . بعيداً عنا أو قريبا منا ظاهرا أو باطنا ستري صلة الحب الذى لا يحد ولا كراهة ولا رغبة فى القتل فاذا كنت تعيش فى مثل هـذا الوعى وانت واقف أو جالس أو راقـد على جنبيك حتى تنام فأنت « براهما فيهـارا » ، أو بعبارة أخرى تعيش وتسعى وتنال مسراتك فى روح براهما[1] » .

وما هى تلك الروح ؟ تقول الابنشاد : ان الكائن الذى فى فى جوهره نور الجميع وحياتهم ، الذى يعى العـالم ، هو براهما ، فشعورك بكل شىء ، ووعيك كل شىء . انما هو روحه . فنحن ننغمس فى وعيه جسما وروحا . وفى وعيه تجذب السماء الأرض ، وفى وعيه تنتقل أمواج الضياء من كوكب إلى كوكب .

هذا الضياء وهذه الروح وذلك الكائن الشاعر بكل شىء ليس مقره المكان فحسب ولكنه فى روحنا كذلك . فهو وعى

---

(١) الثالوث المقدس للبراهمة هو : براهما ، فيشنو ، وسيفا .

شامل فى المكان أو العالم الخارجى ، ووعى شامل فى الروح : أو العالم الداخلى .

لذلك فنحن إذا أردنا أن نصل الى وعينا العالمى ، وجب علينا أن نربط شعورنا بذلك الشعور اللانهائى الشامل . وفى الواقع أن التقدم الإنسانى الصحيح الذى لاتقدم بعده يتجه الى هذا النحو من اتساع الشعور . وأن شعرنا وفلسفتنا ودياناتنا تعمل جميعها على اتساع نطاق وعينا الى أسمى وأوسع الحدود . أن الإنسان لايطلب حقوقا بقدر مايحتل من مكان ، ولا بماله من الخلق الظاهر . ولكن حقوقه تتسع بقدر مافيه من حقيقة ، وحقيقته انما تقاس بما فيه من وعى .

ومهما يكن الأمر فان علينا أن ندفع ثمنا لحرية وعينا . فما هذا الثمن ؟ الثمن هو أن ننسى أنفسنا . فأن روحنا لاتحقق نفسها إلا بانكار الذات . ويقول الأبنشاد : إنك ستجنى كل ما تريد بأعطائك مما تريد . وسوف لاتفقد شيئا . وتنصحنا « الجيتا » بأن نجرد أنفسنا من الغرض ونحن نعمل ، ونصد عن كل جشع فى سبيل النتيجة . ويفهم بعض الخارجين عنا من هذه النصيحة أن العقيدة التى تشير الى أن الحياة شىء باطل انما نشأت

فى جذور ما يسمى الخلو من الغرض فى عظات الهند . ولكن الأمر على نقيض ذلك .

أن من يجعل هدفه تعظيم نفسه ، يحقر كل شيء آخر . ويرى أن بقية العالم ليس شيئا مذكورا بالنسبة اليه لذلك فأن الانسان إذا أراد أن يكون كامل الوعى للحقيقة الكائنة فى كل شيء ، وجب عليه أن يتحرر من قيود الأهواء الشخصية وعليه أن يجعل رائده هذا المسلك ، وهو يعد نفسه للواجبات الاجتماعية . ويساهم فى حمل أعباء بنى وطنه . وكل محاولة ترمى الى توسيع نطاق حياتنا تتطلب من الإنسان أن يربح بما يهب ، وأن لا يكون شرها ، وبذلك ينشر وعى ارتباط الإنسان بسائر جهود الانسانية بالتدرج .

لم يكن اللانهائى فى الهند من قبيل المنات البسيطة ، ولم يكن خاليا من كل شيء . فان طائفة « الريشز » فى الهند يؤكدون فى ثقة . « أننا إذ نعرفه فى هذه الحياة نعرف الحياة الحقة ، ولن تكون معرفتنا اياه موتا مبيداً ، فكيف نعرفه إذن ، نعرفه فى كل شخص ونعرفه فى الجميع ، فلا يصح أن نعرفه فى الطبيعة فحسب بل فى الأسرة والمجتمع والأدارة ، و بمقدار ماندرك من هذا الوعى

العالمي الشامل لـكل شيء تكون فائدتنا منه ، فاذا عجزنا عن ادراك ذلك ، اتجهنا بأنفسنا نحو الدمار .

ان نفسي لتفعم بالسرور وتمتلىء بالأمل في مستقبل الانسانية حين أرى أنبياءنا الشعراء في العصور الغابرة ، كانوا يجلسون تحت أشعة الشمس المحرقة في سماء الهند ، يحيون الدنيا بسرور الأقرباء المتعارفين . لم تكن هذه التحية من قبيل الذهول الديني ، ولا من قبيل رؤية الانسان في كل مكان متمثلا في صورة كبيرة مبالغ في تقديرها . أو مشاهدة قصة الانسانية تمثل في مشهد كبير بفناء الطبيعة التي ترفرف عليها الأنوار والظلال . ولكن الأمر على النقيض . فأنما كان يقصد من ذلك الى اختراق حدود الفرد ، حتى يكون أكثر من انسان ، و يكون انسانا متصلا بكل ما في الوجود . لم يكن هذا لعبا من تصورات الخيال ، ولكنه تحرير الوعي من سائر الغموض والمبالغة النفسية . لقد أحس أولئك الرسل الأقدمون في أعماق عقولهم الهادئة ، ان القوى التي تنتشر وتمر بسائر أوضاع الحياة ، تبعث وعيا في كياننا الباطن ، ثم لاتنفصم عراها . ان نظرة هؤلاء الرسل نحو الكمال لم تكن تعترضها أية ثغرة وهي تتألق بالأنوار . حتى الموت نفسه لم يعتقدوا

على الاطلاق أنه يوجد فجوة فى ميدان الحقيقة وانهم ليقولون «انه يرى فى الموت كما يرى فى الخلود » ولم يجدوا أى تناقض جوهرى بين الحياة والموت . فقد قالوا فى ثقة وتوكيد ، أن الحياة والموت شيء واحد ، فحيوا الحياة بذلك السرور الهادىء فى حالة الانبثاق وحالة الزوال ، وكل ما كان فى الحياة وكل ما سيكون ؛ وقد عرفوا أن مجرد الظهور والاختفاء فى الحياة أشبه بالأمواج على سطح البحر ولكن الحياة خالدة لا تعرف الانحطاط ولا النقصان .

« أن كل شيء قد انبثق من الحياة الأبدية وانتشر فى الحياة لأن الحياة واسعة » ذلك المثل الأعلى الذى يدعو الى حرية الوعى العليا . انما هو تراث كريم عن آبائنا الأقدمين ، ينتظرنا لندعيه لأنفسنا . وأنه لم يكن من قبيل التفكير أو العاطفـــة فأن له أسس أخلاقية ، ويجب أن يترجم الى لغة العمل . ويقال فى الابنشاد « ان الكائن الأعلى يشتمل على كل شيء فى الوجود ، فهو الخير الفطرى المستقر فى كل شيء ، وان جوهر الخـير هو الارتباط الصحيح فى المعرفة والحب والعبادة بسائر المخلوقات ، والوصول من ذلك الى تحقيق النفس فى الله الذى يشتمل كل شيء ، وهذا مفتاح قول الأبنشاد « الحياة واسعة » .

الوعي الروحي

كان هم الهند القديمة أن تعيش وتعمل وتستوحي مسراتها من براها . الروح اليقظة دواما الشاملة لكل شيء . ومن ثم يتسع وعيها حتى يشمل العالم أجمع وقد يبدو أن هذا أمر بعيد عن التحقيق . إذ أن اتساع هذا الوعي إذا كان مرجعه كل ماهو خارج عن نفوسنا سيكون شيئاً لا يدركه الحصر . وما أشبهنا في هذا بمن يحاول أن يعبر المحيط بعد أن يتفتح مافيه من ماء . ومن يريد أن يدرك كل شيء ينتهي لا محالة إلى أنه لا يدرك شيئاً على الاطلاق .

ولكن الأمر في الواقع ليس من الاستحالة بقدر مايبدو لنا. إن الإنسان ليسعى كل يوم لايجاد حل لاتساع دائرة نفوذه . ويسأل عن وسيلة لعلاج ماينوء به من أعباء . إن أعباءه لفادحة وأنها لأكثر مما يحتمل . إلا أنه يعرف أن في مقدوره أن يخفف عن كاهله حمل تلك الأعباء بوضع دستور يلائمها . فاذا كانت تبدو معقدة ومحيرة فانه ليعرف أن هذا إنما كان لأنه لم يهتد إلى الدستور الذي يضع كل شيء في موضعه ويصرف عنه ثقل هذه الأعباء .

والسؤال عن الدستور هو فى الواقع سؤال عن وحدة : هو أن نحاول توحيد مشا كلنا المتعددة الخارجية بعلاج من الداخل وسوف يبدو لنا أن الوصول إلى شىء واحد يجعل فى متناولنا سائر الأشياء . هــذه فى الحقيقة غاية ماندرك من ربح وأسمى مانصل إليه من الغايات .

أن هذه الوحدة تقوم عليها قوتنا التى لاتنفد ، لأن مبدأها الحى قوة الحقيقة : حقيقة الوحدة التى تشمل شتى الأحداث والأفعال . فالأحداث كثيرة والحق واحد . والحيوان بذكائه يدرك الأحداث . والحقائق لايدركها غير عقل الإنسان . ترى التفاحة تسقط من الشجرة ، والمطر ينزل على الأرض فتثقــل الذاكرة بأمثال هذه الأحداث ولا تصل إلى نهاية . ولــكنك إذا عرفت قانون الجاذبية لاتجد بك حاجة إلى جمعها . لأنك تــكون قد وصلت إلى حقيقة واحدة تنطوى تحتها الأحداث المتعددة . وفى الوصول إلى هذه الحقيقة سرور كبير للانسان . لأنها ولا شك تحرير لمــكره . والحدث المجرد كالدرب المضل لايؤدى إلا إلى نفسه ، ولا يؤدى إلى شىء سواه . أما الحقيقة فانها تفتح أمام أعيننا أفقا كاملا . وتقودنا إلى اللانهاية . من أجل هــذا نرى أن رجلا مثل داروين حين يصل إلى بعض

الحقائق العامة البسيطة فى علم الحياة لايقف استكشافه عند هذا الحد ، ولـكنه يكون كالمصباح الذى يرسل أضواءه إلى مسافات بعيدة عن المـكان الذى أوقد لأجـله إنه ينشر ضياءه فى نطاق الحياة الأنسانية والفكرية جميعاً متخطيا النطاق الذى أوقد فيه وهكذا نرى أن الحقيقة وهى تـكتنف فى ظلها سائر الحوادث لا تكون قد جمعتها فحسب . ولـكنها تتخطاها من سائر النواحى الى تلك الحقيقة التى لاحدلها .

وشأن الوعى الروحى فى هذا شأن العلم ، فلابد للأنسان أن يدرك حقيقة رئيسية تقوده إلى اكبر ما يصـل اليه من المعرفة . وهذا ما يشير اليه الابنشاد فى قوله « أعرف نفسك » أو بعبارة أخرى أعرف مبدأ الوحدة الأسمى الذى فى كل انسان إن دوافعنا الذاتية ونوازعنا الشخصية تخفى وراءها حقيقة روحنا ، وما تظهر منها غير تلك النفس المحدودة . ونحن إذ ندرك روحنا ندرك الـكائن الباطن الذى يسمو على أشخاصنا و يتصل اتصاله العميق بكل شىء فى الوجود

ان الأطفال لايجدون أى سرور وهم يبدءون فى تعلم الحروف الابجدية ، لأنهم لايدركون الغرض الأول الذى من أجله يتلقون هذا الدرس . ونحن إذ ننظر إلى هذه الحروف منفردة ينالنا النصب

ولكنها تصبح ينبوعا لسرور ما حين تتألف منها كلمات وجمل وتحمل فى طيها فكرة معينة .

وكذلك روحنا فانها تفقد عظمتها إذا سجنت فى حدود الانسان الضيقة فان جوهرها الصميم هو هذه الوحدة ، وانها تستطيع أن تصل عن طريقها إلى الحقيقة التى تجمع بينها وبين غيرها من الأشياء وهنا بدء سرورها .

لقد عانى الانسان كثيراً وعاش فى عالم المخاوف ردحا من الزمن قبل ان يهتدى إلى فكرة اتحاده بقانون الطبيعة ، وكانت الدنيا شيئا غريباً عنه حتى ذلك الزمن . وما ذلك القانون الذى استكشفه سوى إدراك تلك الوحدة التى تربط بين العقل الذى هو روح الانسان وسائر امور الحياة .

هذا هو وثاق الوحدة الذى وصل بينه وبين العالم الذى يعيش فيه ، وبه يعرف نفسه فيما يحيطه . اننا إذا وصلنا إلى ادراك شىء من الأشياء ، فمعنى هذا اننا نجد فيه شأنا ، وينشأ سرورنا به ، لأننا نرى انفسنا فيما هو خارج عنها إلا ان هذه الصلة صلة الادراك امر جزئى . اما الصلات الكاملة فهى صلات الحب ، ففى الحب يتلاشى كل شعور بالاختلاف . وتنصرف الروح إلى غرضها

الأسمى نحو الكمال ، متخطية حدودها إلى اللانهاية .

فالحب إذن هو اسمى مايصل اليه الانسان من سعادة وفيه وحده يستطيع ان يعرف معرفة تامة ، انه شيء اكثر من نفسه وانه فى وحدة مع سائر الوجود

إن فكرة هذه الوحدة التى تتمثل فى روح الانسان تبقى حية على الدوام ، وتبدو وشائجها البعيدة المدى فى الأدب والفن والعلم والمجتمع والسياسة والدين . وان رسلنا العظاء هم الذين يفسرون معنى الروح احسن تفسير ، بتضحيتهم النفس فى سبيل سعادة بنى الانسان . وانهم ليتحملون الوشايات والاضطهاد والحرمان فى سبيل الحب ، وهم يحيون حياة الروح لا حياة النفس . و يبرزون لأعيننا الحقيقة الانسانية فى اسمى مراتبها . وندعو هؤلاء باسم «مهاتما» اى ذوى الأرواح الكبرى .

يقال فى «الابنشاد» انك لاتحب ولدك لأنك تريده، ولكنك تحبه لأنك تحب روحك . ومعنى هذا اننا نرى انفسنا فى اسمى مراتبها فيمن نحبهم . وفى هذا غاية الحقائق فى امر وجودنا .

ان الروح الأعلى «بارامانما» كائن فى نفسى كما هو فى ولدى ، وأن سرورى به هو مظهر تلك الحقيقة . ومن البدائه المعلومة ،

اننا نسر بسرور من نحبهم ونتألم لألمهم على مافى ذلك من الغرابة عند امعان التفكير فيه . لم كان هذا ؟ هذا لأننا نحس بوجودهم ونلمس تلك الحكمة البالغة التى تشمل سائر الكون .

كثيراً مايمنعنا حبنا لأطفالنا وأصدقائنا أو غيرهم ممن نحبهم من أن نصل الى أبعدمدى لأدراك روحنا ، ولكن ممالا شك فيه أن هذا الحب يزيد فى دائرة وعينا ، وان وضع حدا لأقصى مايمكن أن يصل اليه هذا الوعى فى حرية امتداده . وهوعلى أى حال يعد بمثابة الخطوة الأولى والفضل كل الفضل فى تلك الخطوة بذاتها فهى ترينا الحقيقة التى تجلو عن طبيعة روحنا ، ومنها نوقن بأن أقصى مانبلغه من السعادة نناله بفقد ذاتيتنا واتحادنا بمن سوانا ويهبناهذا الحب قوة جديدة وادراكا وجمالا فى التفكير إلى الحدود التى نقيمها من حوله . ويمتنع عن اداء ذلك ، اذا فقدت هـذه الحدود مرونتها ووقفت أمام روح الحب بصفة عامة . فهنا تصبح صـداقتنا عبئا وتغدو روابطنا العائلية أنانية وبخـلا وتتفشى بين الأمم روح البغضاء . وما أشبهنا فى هذا بشعلة الضياء التى نحبسها فى آنيـة محكمة الاغلاق ، لاتلتمع إلا ريثما تخنقها الغازات السامة ثم تنطفىء وان كانت قد أثبتت وجودها قبل أن تخمد وبعثت فى النفس فرحة بالخلاص من قبضة الظلام المضل الأجوف البارد .

وتذهب الأبنشاد الى أن مفتاح الوعى العالى ، ووعى الله هو وعى الروح . فأول خطوة نخطوها نحو تحقيق الخلاص الأسمى هى أن نعرف موقنين أننا روح فى جوهرنا الحقيق ، ونصل إلى ذلك بسيادتنا على النفس فنرفع عنها كل كبرياء وشره وكل خوف وذلك بأن نعرف أن مانخسره من متاع الحياة ومايناالنامن الموت المادى لن ينال حقيقة روحنا وعظمتها . ان الفرخ يعرف حين يخرج من بيضته التى انفرد فيهـا بنفسه ، وأن تلك القشرة اليابسـة التى اشتملته بعض الزمن لم تكن فى الحقيقة جزءاً من حياته . ان هى إلا شيء ميت لانمو له ولاتأثير على العالم الذى يليها . وكيفما كان كمال روائها ومنظر اسـتدارتها . فلابد أن تكسر وينبعث مافيها ويظهر الضياء والهواء فى حرية كاملة . ثم يتم الغرض المقصود من حياة الطائر . فى اللغـة السنسكريتيـة يسمون الطائر ذى الولادتين . وكذلك الانسان الذى يجتاز حقل نظام كبح النفس والتفكير العالى اثنى عشر عاما على أقل تقدير ، وينشأ على خلق البساطة فى مطالبه ونقاء القلب . والتهيؤ لحمل مسئوليات الحياة مع اتساع فى الروح لايشوبه الغرض يعد انه قد ولد مرة ثانية وانبعث من ظلام الغشاء النفسى إلى حرية الحياة الروحية . ويصبح فى

صلة حية بما يحيط به . ويصير واحداً منسجما مع كل مافى الوجود .

لقد حذرت من يستمعون إلى ، وأعيد تحذيرهم مرة أخرى من أن ينخدعوا بذلك الرأى الذى يقول ان معلمى الهندومرشديهم يشيرون الى نبذ الحياة والنفس حيث الفراغ والحياة السلبية .فقد كان مقصدهم تحقيق الروح أو بعبارة أخرى الوصول الى الحياة بالمعنى الصحيح . وقد كان السيح يعنى هذا حيث قال «ماأسعد الودعاء فانهم سيرثون الأرض» و إنه ليعنى هذه الحقيقة وهى أن الانسان حين يتخلص من كبريائه يصل الى ميراثه الحق . وليس عليه أن يناضل بأ كثر من هذا ليحتل مكانه فى الحياة . والخلاص أمامه حيث سار يحق روحه الخالده. الا أن كبرياء النفس هى التى تتدخل فى وظيفة الروح الصحيحة وهى تحقيق نفسها بعقد الأواصر بينها و بين العالم و بينها وبين إله العالم

يقول بودا فى خطابه لسادحى سيمحا ، صحيح ياسمحا انى أمقت القوى ولكن القوى التى تقود إلى الشر فى الكلمات والافكار والاعمال . وصحيح يا سمحا أنى أدعو الى الفناء ولكن فناء الكبرياء والشهوة وأفكار السوء والجهل لا الفناء فى التسامح والحب والاحسان والحق .

إن مذهب الخلاص الذى يدعو اليه براهما هو الخلاص من أفيديا ، وأفيديا هى الجهل الذى يظلم وعينا ويضعه فى حدود نفسنا الذاتية . وهذا الجهل افيديا ، هذا التحديد لوعينا هو الذى يخلق الانفصال الذاتى العنيف ، فتصبح النفس منبعاً لسائر الكبرياء والشهوة والقسوة الصادرة عن البحث وراء الذات . إن الانسان حين ينام يظل فى سجن قواه المادية الضيقة فهو يعيش ولكنه لا يعرف علاقات حياته المختلفة بما يحيط به . ولذلك فهو لا يعرف نفسه . والإنسان الذى يحيا حياة الجهل «أفيديا» يعيش منطويا فى ظلمات نفسه . فهو فى رقاد روحى . ووعيــه لا يتيقظ لأسمى ما يحيط به من الحقائق . ولا يعرف حقيقة روحه . فاذا وصل إلى بودهى : التيقظ من رقاد النفس وانتقل إلى الوعى التام يصبح بودا .

قابلت ذات يوم رجلين من النساك الذين ينتسبون إلى إحدى الديانات ، فى قرية من قرى البنغل فسألتهما ، هل تستطيعان أن تدلانى الى الصفات الخاصة التى تتسم بها ديانتكم . فتردد أحدهما لحظة ثم قال ان من الصعب أن نحدد لك ذلك . وقال الآخر ، كلا إن الأمر جد بسيط فأول مايجب علينا أن نعرفه . هو أن

نعرف روحنا بارشاد معلمنا الروحى فاذا ما انتهينا من ذلك أصبح من السهل علينا أن نجده هو ، أى الروح العليا التى فى أعماق نفوسنا . قلت ولماذا لاتعلن مذهبك هذا لسائر العالم ، فأجاب . ان من يحس الظمأ الدائم سيسعى الى النهر من تلقاء نفسه . قلت أتعتقد أن الأمر كذلك ؟ أو تظنهم قادمين ؟ فابتسم الرجل ابتسامة رقيقة . وأجاب فى ثقة لاتشوبها شائبة من التسرع أو القلق «لا شك أنهم سيردون زرافات ووحدانا »

أجل . إنه لعلى صواب ذلك الناسك البنغالى الربفى ، إن الانسان يحس حاجته الى اشباع رغباته التى هو فى حاجة اليها أكثر من حاجته إلى المطعم والملبس ، إن عليه أن يجد نفسه . إن تاريخ الانسان هو تاريخ رحلته إلى المجهول فى سبيل تحقيق نفسه الخالدة . أعنى روحه .

فالانسان : فى تاريخ ارتفاع الممالك الكبرى وسقوطها ، وفى جمع الثروات العظيمة وتبديدها ، بغير رحمة . وفى خلق الأجسام الرمزية الهائلة ، التى تمثل أحلامه والهاماته ، ونبذها كما ينبذ الطفل أدوات لعبه ، وفى تكوين مفاتيحه السحرية التى يفتح بها خبايا الخليقة وفى نبذه أعمال العصور الغابرة ، ورجوعه إلى مصنعه لخلق صور

جديدة . أجل انه فى ذلك جميعه يسير من مرحلة إلى مرحلة نحو تحقيق روحه فى أقصى الحدود . تلك الروح التى هى أعظم من الأشياء التى يجمعها الأنسان والأعمال التى ينجزها والنظريات التى ينشئها ، والروح التى لن يوقفها الموت أو الاضمحلال . ان اخطاء الانسان وسقطاته مهما تكن تفاهتها وحقارتها قد نشرت فى طريقه ركاما من الخرائب المكدسة. وكانت آلامه كبيرة كآلام المخاض التى تتجمع لولادة طفل جبار . فهى فاتحة نجاح يؤدى بنا إلى اللانهاية . لقد شاهد الانسان كثيراً من صور الاستشهاد على مختلف أنواعه . وكانت أنظمته هى المحاريب التى بناها ليقدم قرابينه اليومية ، عظيمة فى نوعها كثيرة فى عددها وان هذا جميعه ليصبح ولا معنى له ولايمكن أن يحتمل إذا لم يكن يشعره بسرور الروح العميق فى صميم نفسه ذلك الشعور الذى يثبت قوته المقدسة باحتمال الآلام ويدل على ثروته التى لا تنفد .

أجل إن السفر سيردون زرافات ووحدانا ويسعون إلى ميراثهم الصحيح فى هذا العالم. وستتسع دائرة وعيهم إلى الأبد وسيبحثون على الدوام عن وحدة أسمى وأسمى . ويقتربون دائما من مركز الحق الذى يشمل كل ما فى الوجود

إن فقر الانسان لشديد وان حاجاته لايدركها الحصر ومايزال كذلك حتى يعى روحه تام الوعى. والى أن يصل الى هذه الغاية، تظل الحياة لديه فى غشاوة دائمة، كأنها شبح قائم وغير قائم فى نفس الوقت . و يجد الانسان الذى يحقق روحه مكانه المعروف فى محور الكون الذى يجد حوله كل من عداه مكانه المعين. و بذلك وحده يستطيع أن يستمد سعادته و يستمتع بها فى حياة تامة الائتلاف

لقد كانت الأرض فى وقت من الأوقات قطعة سديمية تتبدد جزيآتها الصغيرة بعزل عنها تحت تأثير قوى الحرارة المنتشرة ، ولما تكن قد تم تكوينها فى صورته المحدودة ولم يكن قد ظهر فيها جمال ، أو حدد لها غرض معين فكانت حرارة وحركة فحسب . فلما تجمدت أبخرتها شيئا فشيئا وأصبحت وحدة مستديرة متجمعة بحكم قوة تعمل على جمع سائر المواد المتناضلة تحت محور واحد، احتلت مركزها من مجموعة الكواكب الشمسية كقلادة من الزمرد فى عقد من الماس . وكذلك الأمر فى روحنا . فنحن لانستطيع أن ننال شأنا أو نعطى شيئا بصفة جدية ، مادامت الحرارة والقوى العمياء تجذبها من كل جانب. ولكنا إذا وجدنا محورنا الأساسى فى روحنا بفضل ضبط النفس، والقوى التى توحد

بين سائر العناصر المتناضلة والمنعزلة ، ردت جميع مؤثراتنا الفردية الى الحكمة ووجدت سائر دوافع القلب الوقتية كما لها فى الحب وعند ذلك تبدى تفاصيل حياتنا الطفيفة غرضاً لانهائيا وتتوحد كل أفكارنا وأعمالنا برباط داخل لا انفصام له

يقول الابنشاد بلهجة التوكيد أعرف الواحد . أعرف الروح انها القنطرة التى تقودك نحو الكائن الذى لا يفنى

هذه غاية الانسان الأخيرة ، وهى أن يجد « الواحد » الذى فيه . فهو حقيقته ، وهو روحه . والمفتاح الذى يفتح به باب الحياة الروحية ومملكة السماء . إن رغباته كثيرة وتسير بجنون وراء مطالب الحياة المختلفة لأنها تجد فيها حياتها ونجحها . ولكن ذلك «الواحد» القائم فى كيانه ما ينفك يسأل عن الوحدة — الوحدة فى المعرفة والوحدة فى الحب والوحدة فى أغراض الارادة . وإن أسمى ماتصل اليه من سرور هو حيث تصل الى اللانهائى فى نطاق وحدتها الأبدية . وهكذا يقول ورد الابنشاد : إن أولئك الذين يستمتعون بالعقول الهادئة هم الذين ينالون السرور الأبدى بادراكهم من صميم أرواحهم ، ذلك الكائن الذى يبدو جوهراً واحداً فى صور متعددة .

إن الواحد الكائن في كل انسان يمد طريقه نحو الواحد الكائن في سائر الأشياء، في مختلف صور الحياة. هذه طبيعته وبذلك سروره. ولكنه لا يستطيع أن يصل الى هدفه عن هذا الطريق المنحرف لو لم يكن لديه نور من ذات نفسه، يستطيع به أن يدرك في لمحة من لمحاته الصورة التي يبحث عنها. ان صورة الواحد الأعلى التي في روحنا ان هي إلا فطرة مباشرة لا يقوم أساسها على المنطق أو التعريف على الاطلاق. ان أعيننا بطبيعتها ترى الشيء الذي أمامها كلا لا بجعله أجزاء متفرقة، ولكن بجمعها سائر الأجزاء موحدة في نفوسنا وكذلك الحال في بداهة وعينا الروحي، الذي يدرك بطبيعة وحدته في الواحد الأعلى.

في الابنشاد: إن هذا الإله الذي يتجلى بنفسه في قوى الكون يسكن قلب الانسان على الدوام كروح عليا. وان هؤلاء الذين يدركونه باحساس القلب المباشر ينالون الخلود.

ونسمي باسم «ڤيشفاكرما» ذلك الذي تبدو مظاهره الخارجة في الطبيعة في صور وقوى مختلفة. ويبدو مظهره الداخل في روحنا في الوحدة. فسعينا نحو الحق في نطاق الطبيعة يكون عن طريق التحليل والتدرج في أساليب العلم. وادراكنا الحق في روحنا يكون

عن طريق الفطرة المباشرة . ونحن لا نستطيع أن نصل الى الروح العليا بما نتزيده من المعرفة التى ندركها جزءاً فجزءاً إلى الأبد ، لأنه هو واحد ولم يكن أجزاء مجزأة . وانا لنستطيع أن نعرفه قلب القلبنا ، وروحا لروحنا . ولا نعرفه إلا فى الحب والسرور الذى يملؤنا حين نهب أنفسنا ونقف أمامه وجها لوجه

إن أعمق الصلوات التى انبعثت من أعماق الانسانية، وأحرها قد صورت فى قولنا المأثور « أيها الذى تتجلى بنفسك ، تجل فى نفسى » وانما نحن فى شقاء لأننا مخلوقات النفس الفادحة الضيقة ، التى لا تهب نوراً . النفس التى تعمى عن اللانهاية . إن نفسنا لتنبعث فى ضجة عالية مشوشة . وليست بالقيثارة المنغمة التى تتصل أصواتها بموسيقى الأبد . و إن قلوبنا الضمحلة لترزح تحت أنات الوجد وألم الخيبة ، والأسف المسترخى على الماضى الغابر والقلق على المستقبل لأننا لم نجد روحنا ، ولم تظهر فى نفوسنا تلك الروح التى تتجلى بنفسها وندعوا «أيها الإله الرهيب انقذنى بابتسامتك العذبة أبد الآبدين »

إن هذا الاغترار بالنفس وذلك الشره الشديد والزهو بالامتلاك وتقلب القلوب ، يمد كفنا كثيفا من أكفان الموت . « أى

رودرا الرهيب مزق ذلك الحجاب المظلم ودع الشعاع المنقذ الذى ينبعث من ابتسامتك الجميلة يتغلغل فى هذا الليل الكئيب ويوقظ روحى من سباتها » .

فدنى من الباطل الى الحق ومن الظلام الى النور . ومن الموت إلى البقاء ، ولكن كيف يرجى الانسان تحقيق هـذه الصلاة ؟ فاللانهاية هى المدى القائم بين الحق والباطل و بين الموت والبقاء ، أجل إن هذه الهوة التى لاتقاس بمقياس تتصل بجسر فى لحظة واحدة ، حين يتجلى المتجـلى بنفسه فى أعماق روحنا . فهنا تقع المعجزة و يلتقى المحدود وغير المحدود « ياأبانا أزل كل خطاياى » فالإنسان بالخطيئة يعين المحدود على غير المحدود الذى فى نفسه . ومعنى هذا أنه يهزم روحه بيده. و يالها من لعبة مخيفة بما تتكشف عنه من الخسارة . إذ ينبذ الانسان كل ماله فى الحياة لينال الجزء اليسير . والخطيئة لطخـة فى جبين الحق تنم على وعينا الظاهر . وفى الخطيئة تنبعث شهوتنا الى المسرات لا لأنها محبوبة فى الحقيقة ولـكن لأن ضياء عواطفنا الأحمر اللون يظهرها بمظهر الشىء المحبوب . ونحن لا نتوق الى الأشياء لأنها عظيمة فى نفسها ولكن لأن شرهنا يبالغ فى تقديرها ويظهرها فى مظهر الشىء العظيم .

وذلك الزيف في تقدير حقائق الأشياء يفصل وحدة حياتنا المتصلة في كل خطوة من خطواته . نفقد تقدير القيم ونؤخـذ بالمظاهر الكاذبة لصور الحياة المختلفة ، التي ينازع بعضها بعضاً . إن عجز الانسان عن استحضار عناصر طبيعته في ظل وحدة الواحد الأعلى هو الذي يجعله يحس ألم انفصاله من الله ويعلن هذا الدعاء الحار يا إلهي يا أبي ، أزح كل خطاياى وأزلها جميعا ، وأعطنا ما هو خير لنا ، ذلك الخير الذي هو خبز روحنا اليومى . إننا مقيـــدون في مسراتنا بأنفسنا ، وبالخير نتحرر ونرتبط بكل شيء في الوجود .

وكما أن الطفل في رحم أمه يجد قوامه باتصال حيـاته بحياتها التي هي أوسع من حياته ، فكذلك روحنا تجد غذاءها في الخير فحسب ، ذلك الخير الذي يعد بمثابة الادراك لوشائجها الباطنة . والممر الذي يوصلها الى اللانهائى الذي يحيطها ويغذيها لذلك يقال « سعداء أولئك الذين يجوعون ويظمأون وراء الحق فانهم سوف يمتلئون . فالحق هو غـذاء الروح المقدس ولا يشبع الانسان ويجعـله يحيا حياة اللانهاية ، ويساعده في المسير الى الأبد ، شيء سواه . إننا ننحني إجلالا لك يا من تنبعث عنه مسرات حياتنا . وننحنى اليك يا من ينبعث عنه خير روحنا . وننحنى اليك يا من هو الخير

والخير الأسمى ، يامن فيك نتصل بسائر الأشـياء ، فى الأمن والتوافق والاحسان والحب .

إن دعاء الانسان ليرتفع حتى يبلغ أقصى مايبلغ من التعبير عن نفسه . وان رغبة التعبير عن النفس هى التى تقوده إلى البحث عن الثراء والقوة إلا أنه يجب أن يعرف أن هذا الجمع لايحقق نفسه . فالضياء الذى يتغلغل فى نفـسه هو الذى يظهره . لا الأشياء الخارجة عنه . فاذا اشتعل هذا الضياء عرف فى لحظة واحدة أن أسمى ما يصل اليه الانسان من الظهور هو تجلى الله فى نفسه ودعاؤه انما هو لأجل ذلك — أى ظهور روحه وتجلى الله فيها . إن الانسان لايكون انسانا بالمعنى الصحيح ، و يبلغ أقصى مايصل اليه من ظهور النفس والتعبير عنها ، الا اذا حققت روحه نفسها فى الـكائن اللانهائى « أفيه » الذى جوهره التعبير .

وانما الشقاء الانسان الحق هو أن لايتم ظهوره الى حده الأوفى ، و يظل مختفيا فى حـــدود نفسه ، ضائعا فى غياهب رغباته . ولا يستطيع أن يحس نفسه بعيداً عن محيطه الشخصى ؛ أما نفسه الـكبرى فملوثة . وحقيقتـه فمجهولة . لذلك فان الدعاء الذى ينبعث من سائر كيانه هو هذا « الدعاء » يا من هو روح التجلى

تجل بنفسك فى نفسى ، وهذا التوق الى التعبير الصحيح عن النفس، موروث فى أعماق الانسان أكثر من الجوع والظمأ اللذين يطلبان لصيانة الجسم . وأكثر من شهوته الى الثراء والوجاهة . وليست أهمية هذا الدعاء فى أن يولد الانسان منه فحسب . ولكنه فى أعماق سائر الاشياء ، وهو الدعوة التى لا تنتهى « لأفيه » روح الظهور الأبدى .

ان تجلى اللانهائى فى النهائى ، الذى هو حركة الخليقة أجمع لا يرى فى تمام كماله فى السماء ذات النجوم المشرقة ، ولا فى جمال الأزاهر . ولكن فى روح الانسان لأن إرادته تظهر فى الارادة . والحرية تنال جائزتها الأخيرة فى حرية ما تحيطه .

لذلك فان نفس الانسان التى لم يحطها ملك الكون الأعظم بعرشه ، قد تركها حرة . فالانسان فى نظامه المادى والعقلى حيث يتصل بالطبيعة ، يجب أن يعرف قانون ملكه . أما فى نفسه فهو حر فى افكاره . وهنا يجب أن يسمح لالهنا بأن يلج ولكنه يأتى كضيف ، لا كملك . لذلك فان عليه أن ينتظر حتى يدعى والنفس التى يسحب الله عنها أوامره هى نفس الانسان ، لأنه جاء ليكرم حبنا فيترك قواه المسلحة — وهى قوانين الطبيعة — خارج

بابه ولا يسمح لشيء بأن يتقدم الى رحابه غـير الجمال . فهو وحده رسول حبه .

ولا يؤذن بالفوضى إلا فى هذا النطاق ، نطاق الارادة . وفى نفس الانسان وحده تقيم فوضى الباطل والظلم سلطانها وتصل الاشياء الى ذلك المأزق الذى يجعلنا نصرخ من ألمنا الممض قائلين «هذه الفوضى لايمكن أن تسود إذا كان فى الوجود إله» أجل إن الله قد وقف الى جانب نفسنا حيث لا يعرف صبره — الذى يراقب الاشياء — حدوداً . وحيث لا يرغمنا على فتح الباب وقد أغلقناه دونه .

وذلك أن نفسنا هذه يجب عليها أن تنال معناها الأخير وهو الروح . فى الحب ، لافى مقاومة قدرة الخالق ، وبه تصير فى وحدة مع الله فى ظل الحرية .

إن الذى تتحد روحه بالله يعد بين الناس بمثابة الزهرة الرفيعة للأنسانية لأن (أفيه) يظهر له أصح ما يظهر الله فى خلقـه . ولأننا بهذا نرى اتحاد الارادة العليا بارادتنا واجتماع حبنا بالحب الذى لا يحد بحدود

من أجل ذلك كان الانسان الذى يحب الله حبا حقيقيا فى

بلادنا محلا لاكرام الناس وحبهم . وإن عد فى الغرب فى غالب الأحيان رجسا يجتنب . إذ أننا نجد رغبة الله فيه محققة . وسائر العوائق التى تمنع ظهوره زائلة ، وسروره الحق فى الانسانية مزهرا فى أبهى رونه . فحياته تحترق بحب الله ، وتجعل لحبنا الأرضى نورا وبهجة ، وتجتمع سائر روابط حياتنا وتجاربها للسرور والألم حول هذا المظهر الذى يشف عن الحب المقدس . وتكون تلك القصة الغرامية التى نشهدها فيه ؛ وتجرى لمسات من السمر اللانهائى على صفائر الحياة ، ووجوهها المعروفة ، فتبعث منها موسيقى صامتة النغم . وتبدو الأشجار والنجوم والتلال الزرقاء ، رموزا تشتعل بمعنى لا يمكن أن يعبر عنه بالكلمات . وكأننا نراقب السيد الأكبر وهو يؤدى عملية خلق عالم جديد ، حيث تخلع روح لإنسان ستار نفسها الكثيف وتلقيه جانبا ، وحيث يرفع عنها النقاب ، وتصبح وجها لوجه أمام محبوبها الأبدى

ولكن ما هذه الحال ؟ إنها صباح الربيع ، يختلف فى حياته وجماله ، وإن كان شيئا واحدا وكليا ؛ فاذا خلصت حياة الإنسان من حيرته ووجد وحدته فى الروح . أصبح وعى

اللانهائى لديه وعيـــــا مباشرا طبيعيا ، كالنور للهب . فيوفق بين سائر منازعات الحياة ومناقضاتها . وتصبح المعرفة والحب والعمل فى وحـدة منسجمة متفقة ، ويصـير السرور والألم شيئا واحدا فى الجمال ، والمتعة والحرمان متساويين فى الخير . وتغدو الصلة بين المحدود وغير المحـدود وقد امتلأت وتدفقت بالحب . وتحمل كل لحظة رسالة الأبدية . ويبدو لنا ما لا يدركه التصوير فى صورة زهرة أو ثمرة ، ويصحبنا ما لا حد له فى زراعيه كالأب ، ويسير إلى جانبنا كالصديق . إنها الروح ، الواحد الكائن فى الانسان ، الذى بطبيعته يستطيع أن يتغلب على الحدود ويجد صلته بالواحد الأكبر . واذا لم ننل الوحـدة الباطنة ، والشمول فى كياننا ، فان حياتنا تظل حياة عادات . وما تزال تبدو لنا آلة تحكم حيث تكون نافعة ، ويحترس منها حيث تكون خطرا ، ولا تعرف على الاطلاق بروابطها القصوى بنفوسنا .

وسيان هى فى وجودها المادية وحياة الروح والجمال

مسألة الشر

إن الذى يسأل لماذا وجد الشر فى الحياة ، كمن يقول لماذا وجد النقص فيها ، أو لماذا كانت الخليقة على الاطلاق ! والذى يجب علينا أن نتأكد منه هو أن الحياة لا يمكن أن تكون على خلاف ذلك . أى أن الخليقة يجب أن تكون ناقصة . وأنها تتدرج فى طريقها نحو الكمال . ومن العبث أن نتساءل : لماذا نحن فى هذا الوجود ؟

والسؤال الصحيح الذى ينبغى لنا أن نسأله هو : هل هذا النقص هو الحقيقة الأخيرة ؟ هل الشر فى الحياة شىء كلى ونهائى فى ذاته ؟ إن النهر له حدوده وشطآنه ، ولكن هل الشطآن هى النهر ذاته ؟ أو هل الشطآن هى الحقيقة الأخيرة التى يمكن أن نفهمها عن النهر ؟ أليست هذه الحدود والعوائق نفسها هى التى تحرك ماءه وتدفعه إلى الأمام ؟ واذا كان الحبل يستخدم كرباط للسفينة ، فهل يفهم من ذلك أن القيد هو كل معنى للسفينة ؟ أليس هذا الحبل فى نفس الوقت يقودها إلى الأمام ؟

إن تيار الحياة له حدوده ، وإلا لم يكن فيها وجود . إلا

أن غرضها لا يبدو فى الحدود التى تحجزها ، و إنما يتجلى فى حركتها التى تقودها نحو الكمال . وليس العجب أن الحياة يجب أن تكتنفها العوائق والمشقات ، ولكن العجب فى الحقيقة أن يسودها القانون والنظام ، والجمال والسرور ، والخير والحب . وفكرة الله الكائنة فى نفس الإنسان هى أعجب العجب . لقد أحس الإنسان فى أعماق حياته أن ما يبدو غير كامل هو مظهر الكمال . وما أشبهه بالسامع الذى له أذن موسيقية ، يدرك جمال اللحن ، وهو إنما يصغى لتعاقب النغمات الموسيقية . وقد أدرك الإنسان ذلك التناقض العظيم الذى يبدو فى أن المحدود لا يبقى محبوسا فى حدوده ، فهو فى حركة دائمة ، ولذلك يبسط حدوده فى كل لحظة . وفى الواقع أن النقص ليس معناه إنكار الكمال . والمحدود لا يناقض غير المحدود ، و إنما هما الكمال فى أجزائه المتفرقة ، وغير المحدود فى نطاق المحدود .

وليس الألم ، وهو شعورنا بأننا محدودون ، أمراً لزاما فى حياتنا . فهو ليس نهاية فى حد ذاته شأن السرور . و إذا واجهناه عرفنا أنه ليس له مكان صحيح فى حياة الخليقة الدائمة وهو فى هذا كالخطأ فى حياتنا الفكرية . فنحن إذا اطلعنا على

تاريخ تقدم العلوم أذهلتنا كثرة ما فيه من الأخطاء التي تكونت في مختلف العصور . وليس في الوجود من يعتقد في الحقيقة أن العلم هو الطريق الصحيح لنشر الأخطاء . وإنما العبرة في تاريخ العلم بما يسجله من الحقائق ، لا ما يرتكبه من الأخطاء العديدة . فالخطأ بطبيعته ليس شيئاً ثابتاً ، ولا بقاء له مع الحقيقة . وهو في ذلك كالأفاق الذي يسرع إلى ترك منزله عندما يشعر بأنه لا يفي بحاجته إلى النهاية .

كذلك الشر في سائر أحواله كالغلطة الفكرية ، غير ثابت في جوهره ، لأنه لا يوائم الحياة في عمومها . وينصلح كل لحظة بتمشيه في مجرى الأمور ، ولا ينفك يتحول مظهره على الدوام ونحن نبالغ في تقدير أهميته حيث نتصور أنه شيء ثابت أبد الحياة إننا نراع حقا إذا نظرنا بطريق الاحصاء والعد إلى ما يحل بالأرض في كل لحظة من الموت والتحلل . ولكن الشر في الواقع شيء غير ثابت ، وعلى الرغم من قواه التي لا يدركها الحصر ، فإنه لا يعوق تيار حياتنا . وإنا لنرى الأرض والماء والهواء ما زالت تحتفظ لسائر المخلوقات بما فيها من عذوبة ونقاء . وقد نشأت هذه الاحصاءات لأننا نحاول أن نستظهر بالعد والحصر

أمراً هو فى حركة على الدوام . فأصبح للأشياء تقدير فى عقولنا يغاير تقديرها فى عالم الواقع . لذلك نرى أن الانسان الذى يهتم بحكم مهنته بناحية معينة من النواحى ، يكبر من شأنها . وهو باعطائه الأمور قيمة غير قيمتها الحقيقية إنما يفقد ناصية الحق . وقد يجد رجل المباحث الفرص السانحة لدراسة الجرائم بتفصيلاتها ولكنه لايحس مركزها فى النظام الاجتماعى بصفة عامة . إن العلم وهو يجمع شتى الأحداث التى تصور كفاح الحيوان فى سبيل الحياة — كما تبدو فى مملكة الحيوان — يبرز فى عقولنا صورة عن الطبيعة المقرونة فى الناب والمخلب . ولكننا فى هذه الصور العقلية لما نزل نلتزم حدود الألوان والشيات التى لا بقاء لها فى الواقع . وما أشبهنا بمن يحصى وزن الهواء الذى تحمله كل بوصة فى جسم الانسان ليبرهن على مقدار مايرزح تحته من أعباء ، وكيفما كان الأمر فان فى جسم الإنسان مواءمة يخف بها حمل تلك الأثقال ، وإلى جانب تنازع البقاء فى الطبيعة أخذ وإعطاء متبادل ، هنالك حب الأطفال والرفاق وتضحية النفس الصادرة عن الحب . والحب هو العنصر الايجابى فى الحياة .

وإذا كنا سنظل على الدوام نلقى ضوء البحث ، فى ملاحظاتنا

على حادث الموت . فإن الحياة ستبدو أمامنا كحانوت كبير تتجمع فيه عظام الأموات . ولكننا لا نزال فى عالم الحياة نرى أن الموت له أقل تأثير مستطاع على عقولنا . لا لأنه أقل الأشياء ظهوراً ، ولكن لأنه الناحية السلبية فيها . كذلك نحن نغلق أجفاننا كل لحظة . والعبرة بالعين وهى تفتح . إن الحياة فى عمومها لن تنظر إلى الموت بعين الجد . وانها لتضحك وترقص وتلعب وتبني وتدخر فى مواجهة الموت . وإنما نحن نفزع ونشعر بفراغ الموت حين ننصرف الى حادث من أحداثه الفردية . غير ناظرين إلى الحياة الشاملة التى يعد جزءاً منها . وما أشبهنا فى ذلك بمن ينظر إلى قطعة من القماش بعين المجهر (الميكرسكوب) إنها ستبدو لناظريه كالشبكة لا محالة . ونحن ننظر إلى تلك الخروق الواسعة فنرتعد فرقا عند تصورها . ولكن الموت فى الواقع ليس بالحقيقة الأخيرة فى الحياة . إنه ليبدو كالقتام والسماء صافية زرقاء ، وانه لن يخلع على الوجود أثر ذلك اللون الحالك ، كما أن السماء لا تترك على جناح الطائر أثراً من بقعها الدكناء .

إذا نظرنا إلى الطفل وهو يحاول المشى نرى إخفاقه الذى لا يحصى . وان نجاحه لقليل . وما أقسى منظر الحياة إذا وضعنا

ملاحظاتنا فى حدود ضيقة من الزمن ! ! ولـكن الطفل على الرغم من إخفاقة المتـكرر يحس ذلك السرور القوى الذى يدفعه إلى مواصلة عمله الذى قد يبدو مستحيلا عليه . وهو لا يفـكر فى سقوطه المتـكرر كما يفـكر فى مقدرته على أن يحفظ توازنه ولو لحظة واحدة .

وهكذا نحن نلاقى الآلام على اختلاف ألوانها فى حياتنا كل يوم ، وشأننا حيالها شأن ذلك الطفل الذى يحاول المشى . فنرى ما فينا من نقص فى المعرفة والقوة الصالحة ، وضعف فى الإرادة . ولـكننا قد نقضى من اليأس إذا كانت هذه الآلام لا تبدى غير ضعفنا . ونحن إذ نصرف أنظارنا إلى ناحية محدودة من نشاطنا ستبدو خيبتنا وشقاوتنا الفردية عظيمة فى نظرنا . ولـكن حياتنا تقودنا بالسليقة إلى أن ننظر اليها من ناحية أوسع وأعم . وتمدنا بالمثل الأعلى للـكمال الذى يتخطى بنا حـدودنا الحاضرة على الدوام وان لدينا لأملا يتقدم تجر بتنا المحـدودة الحاضرة دائما . وهو عقيدتنا التى لا تفنى فى (اللانهائى) الذى يملأ نفوسنا . إنها لا تقر عجزنا أو تعده شـيئاً ثابتاً . وانها لا تضع حداً لأغراضها . وتستطيع أن تقرر أن الانسان فى وحـدة مع الله ،

وأن أحلامه الواسعة تتحقق كل يوم . إننا نرى الحق حين نوجه عقلنا نحو اللانهاية . فليس المثل الأعلى للحق منحصراً فى نطاق الحاضر الضيق . ولا فى إحساساتنا المباشرة . ولـكن فى وعينا كل شىء ، ذلك الوعى الذى يجعلنا نتذوق ما ينبغى لنا أن ندركه فيما أدركناه بالفعل . وهـذا الشعور بالحق كائن فى حياتنا إما بالوعى أو بغير الوعى ، وأنه لأ كبر مما يبدو على الدوام . فحياتنا تواجه اللانهاية ، وهى دائمة التحرك . فطموحها إذن أكبر مما تصل اليه . وهى فى سيرها الدائم تجد أن تحقيق الحقيقة لايتركها عند صحراء المحدود ، بل انه ليدفعها إلى ما هو أبعد على الدوام ويستحيل على الشر أن يوقف مجرى الحياة فى عرض الطريق ويسلب ما لديها . فالشر من شأنه أن يسير ثم يتحول إلى خير وهو لايستطيع أن يقف فى ميدان واحدا ، ليناضل كل ما فى الوجود . واذا أتيح اشر أيما كانت تفاهته أن يقف فى مكان ما دون تحديد . فانه جدير أن يغوص الى الأعماق و يستأصل جذور الوجود . وكذلك الإنسان لا يستطيع أن يعتقد اعتقاداً صادقاً فى الشر . كما انه لا يمكنه أن يصدق أن أوتار القيثار انما صنعت لذلك الغناء الذى تخلقه الأنغام المتنافرة ، وان كنا عن طريق

الاحصاء يمكننا أن نبرهن بعملية حسابية على أن احتمال التنافر في الموسيقى أكثر من التوافق . فبجانب من يعرف العزف على القيثار آلاف لا يعرفون . إن القدرة على الكمال ترجح المناقضات العملية . ومما لا شك فيه أنه ظهر في الحياة اناس يعتقدون أن الوجود شر مطلق . ولكن الانسان لم ينظر بعين الجد الى ادعاءاتهم . ان تشاؤمهم إنما هو مجرد مظهر فكرى أو عاطفى ، ولكن الحياة نفسها تسير نحو التفاؤل . لأنها تريد أن تسير قدما . والتشاؤم هو صورة من صور الادمان العقلى ، ينبذ الغذاء الصحى ويترفع عنه ويعكف على شراب الاتهام العنيف ، ثم يخلق نوعا من الغم المصطنع يظمئه إلى جرعة أشد . واذا كان الوجود شراً فانه لا ينتظر حتى يأتى فيلسوف ويحكم عليه بذلك وما أشبهنا فى هذا بمن يقنع انسانا بأنه منتحر ، وهو ما يزال يقف أمامه بلحمه ودمه . فالوجود هنا ليقنعنا بأنه لا يمكن أن يكون شرا .

إن النقص الذى لا يكون نقصا جميعه . ويكون له كمال كمثل أعلى ، لا بد أن يسير فى طريقه المتواصل نحو تحقيق الحياه . وكذلك فان وظيفتنا الفكرية هى أن ندرك الحق فى تجربتنا

لأنواع الباطل . والمعرفة ليست سوى احتراق متصل للخطأ لتحرير ضياء الحق . وإنما تصل إرادتنا وأخلاقنا إلى الكمال بالتغلب على الشر دائما . داخل نفوسنا أوخارجها . أو في الاثنين معا . إن حياتنا المادية لتستهلك في كل لحظة كثيرا من المواد الجسمية لتستبقى نيران الحياة فيها . وكذلك حياتنا الأدبية تحتاج إلى الوقود الذى تحرقه . والحياة تسيرقدما نحو التقدم . وقد عرفنا ذلك وأحسسناه ، ولدينا إيمان لا يتزعزع بأن اتجاه الانسانية يسير من الشر إلى الخير . لأننا نشعر بأن الخير هو العنصر الايجابى في طبيعة الانسان . في كل عصر وكل أرض لا يقدر الانسان شيئا كمثله الأعلى في الخير . لقد عرفنا الخير وأحببناه ومنحنا أسمى ما لدينا من التبجيل لهؤلاء الذين أظهروا في حياتهم ذلك الخير .

والسؤال الذى يجب أن نسأله إذن هو : ما هو الخير ؟ ما هو القصد من طبيعتنا الخلقية ؟ وجوابى على هذا هو : أن الانسان حيث يبدأ ينشر صورة نفسه الصحيحة ، ويدرك أنه أكثر مما يبدو في حاضره ، يكون قد بدأ يعى طبيعته الاخلاقية . ومن ثم يعرف بالتدرج ما لم يصل اليه بعد ، ويدرك أن ما لم يصل اليه .

بخبره أقرب فى حقيقته مما وصل اليه بمعرفته المباشرة . ومما لاشك فيه أن نظرته للحياة ستتغير وتحل ارادته محل رغائبه . لأن الارادة هى الرغبة الكبرى للحياة الواسعة . الحياة التى لا يصل حاضرنا إلى جزئها الأكبر . ولا يقع نظرنا على أكثر ما فيها . وهنا يختلط أقل الناس بأعظمهم لدينا ، وتمتزج رغباتنا بارادتنا . وتتحد محبة الأشياء التى تؤثرها حواسنا بالأغراض الكامنة فى أعماق قلوبنا . ومن ثم نميز بين ما نرغبه عن طريق مباشر وبين الخير . لأن الخير هو ما نرغبه لنفسنا الكبرى . وهكذا فالاحساس بالخير ينبعث عن نظرة أصح نحو حياتنا . وهى النظرة التى توصل بين ميدان الحياة الشامل وبين ما يتحقق أمامنا فى الحاضر ، وما لم يتحقق بعد وربما لا يحققه الانسان . والانسان الذى تحيطه العناية . يحس حياته التى لم تتحقق . ويحسها أكثر من الحياة التى تصحبه . لذلك فهو على استعداد دائم لتضحية رغباته الحاضرة فى سبيل المستقبل الذى لم يتحقق .

وبهذا يصير عظيما . لأنه يحق الحق . ومهما تكن من أنانية الانسان فان عليه أن يدرك هذه الحقيقة ، وعليه أن يكبح جماح قواه المباشرة ، وبعبارة أخرى ، يكون أخلاقياً . إذ أن قوانا

الأخلاقية هي التي تجعلنا نعرف أن الحياة ليست أجزاء متفرقة لا غرض لها ولا اتصال. وهـذا الاحساس الخلقي في الانسان لا يهبه القوة التي يرى بها أن النفس لهـا اتصال دائم بالزمن فحسب ، ولـكنه يساعـده على أن يعرف أنه مخطىء حين يحبس نفسه في حـدود نفسه . فهو يكبر بالحق عما هو في الواقع وهو ينتمي في الحق إلى أفراد لا تحتويهم فرديته ، وربما لا يتاح له رؤيتهم على الاطلاق . وكما أن الانسان يشعر بنفسه المستقبلة الـكائنة خارج وعيـه الحاضر . فهو يشعر بنفسه الـكبرى الخارجة عن حدود شخصيته . وليس بين الناس من لا يشعر بذلك إلى حد معين ، فلا يضحي رغباته الشخصية على الاطلاق في سبيل شخص آخر . ولا يحس سروراً في تحمل بعض الخسارة أو العناء ليسر بعض الناس . والحق أن الانسان ليس بالكائن المنفصل ، وان له مظهره العام . فاذا عرف ذلك ، أصبح إنسانا عظيما . وانا لنرى أشد الناس غلوا في الشر يلجأ إلى إدراك ذلك وهو يبحث عن قوة افضـل الشر . لأنه لا يستطيع أن يتجاهل الحق ويحتفظ بقوته . وهكذا فنحن إذا اردنا ان نستعين بالحق وجب علينا أن نتنازل عن أنانيتنا إلى حد ما . ان فريق اللصوص

يرى حاجته إلى الأخلاق ليتم التوافق فيما بين افراده . وربما سرق العالم ولا يسرق بعضه بعضا .

ولكى تنجح المقاصد الفاسدة يجب أن تكون الأخلاق من أسلحتها . والواقع أن قوانا الأخلاقية فى كثير من الأحيان هى التى تهبنا القوة المؤثرة لعمل الشر واستغلال الآخرين لمصلحتنا الذاتية وسلب حقـــــوق الآخرين . ان حياة الحيوان ليست بالحياة الأخلاقية لأنها لا تحفل بغير الحاضر المبـــاشر . وحياة الإنسان قد تخالف الأخلاق ولكن يجب أن تكون لهـــا دعائم من الأخلاق . وما لم يكن أخلاقيا هو ناقص الأخلاق . كما أن الشىء الزائف فيه نسبة من الحقيقة الى حد ما ، وإلا لم يكن يستحق حتى أن يكون زائفا . وعدم الابصار هو العمى ، ولكن النظر الخاطىء نظر على كل حال ولكنه نظر ناقص . ان أنانية الانسان هى أنه يرى بعض صلات الحياة ، وأغراضها ، ويعمل بمقتضى ما تمليه عليه من ضبط النفس وانتظام الخلق الملائم لتلك الأغراض . والمحب ذاته يتحمل المشـــــاق طائعا مختاراً الأجل نفسه . ويقبـــــل التعب والحرمان دون تأفف لأنه يعرف أن ما نسميه ألماً وتعباً . إنما ننظر اليه من ناحية ضيقة من الزمن .

وينقلب الى النقيض حين ننظر اليه من ناحية أكثر اتساعا . وهكذا فان ما يعد خسارة للرجل الصغير يعد كسبا لمن يكبره والعكس بالعكس .

ويتسع معنى الحياة لدى الانسان الذى يعيش لأجل فكرة معينة ، لخدمة وطنه أو لخير الانسانية ، ويصبح الألم شيئاً أقل أهمية بالنسبة اليه . ان الذى يعيش لأجل الخير يعيش للجميع . وانما السرور يجنيه الانسان لنفسه . ولكن الخير يعمله لسعادة الانسانية فى كل عصر وأوان . وإذا نظرنا الى ناحية الخير بدا لنا السرور والألم فى معنى مختلف . فيكون السرور مضيئاً والألم محببا والموت نفسه شيئا يرحب به لأنه يعطى قيمة عليــا للحياة . وفى مواقف الانسان العليا فى الحيــاة تفقد جوانب الخير والسرور والألم قيمتها الكلية . يدل على ذلك الاستشهاد فى التاريخ . ويدل عليه استشهادنا الصغير فى حياتنا كل يوم . إننا اذا أحضرنا وعاء وملأناه بماء البحر نشعر بثقله . ولكننا حين نغطس فى نفس البحر يتدفق فوق رءوسنا من الماء ما يملأ ألف وعاء ولا نشعر بثقلها فنحن نحمل وعاء النفس بقوتنا . وتحت ظل الأنانية يأخذ السرور والألم كل مالهما من ثقل . ولكنهما يخفان الى درجة كبيرة فى ظل

الأخلاق . حتى أن الإنسان الذى يتصف بها يبدو لنا مثلا أعلى للانسانية فى صبره بأزاء الظروف القاسية المحطمة وتجلده أمام العذاب الشديد .

ولكى نعيش فى خير تام يجب أن نحقق حياتنا فى اللانهائى وهذه أشمل نظرة للحياة الشاملة نستطيع أن نصل اليها بقوتنا الموروثة من الناحية الاخلاقية الشاملة . وتعاليم بودا تنمى هذه القوة الاخلاقية الى أبعد حد . حيث نعرف أن ميدان قوانا غير مرتبط بنطاق نفسنا الضيقة . وهذه صورة مملكة المسيح السماوية اننا نتحرر حين نصل الى هذه الحياة الشاملة . وهى حياة الأخلاق — من أسار السرور والألم ، ويمتلىء المكان الذى تخليه نفسنا بسرور صامت ينبعث من الحب الذى لا يقاس بمقياس . وهنا ترتفع قوى الروح . الا أن دوافعها لا تصدر عن الرغبات ولكن عن سرورها وهذه (كارمايوجا)[1] الصادرة عن الجيتا أى الطريق الذى ينهجه الانسان ليكون

---

(١) كارما فى اللغة السنسكرتية بمعنى العمل أو الحركة وهى كمذهب بمعنى الجزاء المحتوم فى الخير والشر ، ويوجا معناها تحرر الروح من كل ما يعوقها عن الاتصال بالكون وباقة .

واحداً مع قوى اللانهـــاية بالتدرب على قوى الخير المجرد عن الغرض .

حين فـكر بودا فى خلاص الانسانية من وهدة الشقاء وصل الى هذه الحقيقة وهى أن الانسان حين يصل إلى أسمى مراتبـه باندماجه الفردى فى الحياة الشاملة يتحرر من أسر الألم فلنتدبر هذه الناحية بوجه أعم . أخبرنى تلميذ من تلاميذى ذات مرة بمخاطرته فى زو بعة عاصفة ، وشكا الى بأنه كان فى عناء ناصب طول وقته إذ يشعر بأنه فى هياج الطبيعة وعندها كان يعامل كأنه لم يكن أكثر من حفنة من التراب ولم يكن له كشخصية ذات صفة معينة وارادة مستقلة أقل تأثير فيما كان يحدث

قلت إذا كان اعتبارنا الفردى سيمنع الطبيعة من طريقها ،فان الخسارة ستكون أكثر على الافراد

ولـكنه أصر على شكه . قائلا لقد كان هذا الأمر الذى لا يمكن تجاهله — وهو الشعور بذاتى فالذاتية الـكائنة فى نفسى تبحث عن صلة فردية بالنسبة لها.

فأجبت بأن الذاتية متصلة بشىء غير ذاتى فيجب والحالة هذه أن نبحث عن وسيط معروف لكليهما ويجب أن نوقن تمام اليقين

بأنه لدى (الذاتى) كما هو لدى (غير الذاتى) على حد سواء

وهذا ما يجب أن يعاد هنا . فينبغى أن يستقر فى أذهاننا أن فرديتنا بطبيعتها مسوقة إلى البحث عن الحياة الشاملة . وأن جسمنا ليهلك إذا لم يجد مايقتات به غير مادته ، وعيننا تفقد وظيفتها اذا كانت لا تبصر غير نفسها

وكما أن الخيال كلما كان قويا نقص اعتبار الخيال فيه وازداد اتصاله بالحق ، فنحن كذلك كلما كانت فرديتنا قوية ازدادت صلتها بالكون . إذ أن عظمته الشخصية ليست فى ذاتها ولكن فيما تشتمل عليه ، وهو شىء عام ، كعمق البحيرة لايقاس بحفرتها ولكن بعمق مائها .

وهكذا . إذا كان صحيحا أن حنين طبيعتنا انما هو لأجل الحقيقة ، وأن شخصيتنا لاتكون سعيدة بكون خيالى تخلقه بنفسها فمن الواضح أن صالحها يقتضى أن تعالج الأمور باتباع قانونها ، لا ان تعالجها وفق مايسرها . وهذه الثقة التى لاتحد بالحقيقة قد تعترض إرادتنا فى بعض الأحيان وكثيراً ما تقودنا إلى الدمار كما أن صلابة الأرض تؤذى الطفل الذى يتعلم المشى حين يقع عليها . وهذه الصلابة نفسها التى تؤذيه هى التى تيسر له المشى .

كنت أمر ذات يوم بقارب تحت قنطرة فاصطدم الصارى بأحدى عوارضها . فإذا كان هذا الصارى قد انحنى مقدار بوصة أو بوصتين ، أو ارتفع ظهر القنطرة كالهرة الفاغرة ، أو غاض ماء النهر قليلا ، كان هذا وفق ما أريد . لكن هذه جميعا لم ترع ضعف حيلتى .وبهذا السبب نفسه استطيع أن أسير فى النهر واقلع عليه بمساعدة الصارى .وأستطيع أن أعول على القنطرة اذا كان التيار متعبا . الأشياء هى ماهى واذا أردنا أن نعالجها يجب أن نعرفها ومعرفتها ميسورة لأن رغبتنا ليست قانونها .وفى هذه المعرفة سرور لنا لأن المعرفة احدى مداخل صلتنا بالأشياء الخارجة عنا فهى تجعلها ملكا لنا و بذلك توسع من حدود نفسنا

يجب علينا فى كل خطوة من خطواتنا أن ندخل فى حسابنا أمر غيرنا لاأمر أنفسنا فحسب . ونحن لا ننفرد إلا بالموت . والشاعر يكون شاعراً بحق إذا كان يستطيع أن يجعل من فكرته الشخصية سروراً لسائر الناس ولا يستطيع أن يصل إلى هذه الغاية مالم يكن لديه وسيط معروف لكل من يشهد مجلسه وهذه اللغة المعلومة لها قانونها الذى يتحتم على الشاعر أن يكتشفه ويتبعه و بذلك يكون صادقا نحو فنه و يصل الى مرتبة الخلود الشعرى

فنحن نرى إذن ان فردية الانسان ليست أسمى معانى حقيقته لأن فيه شيء عام . وإذا كان يريد أن يعيش فى عالم تكون نفسه فيه هى العامل الوحيد . فإنه يغدو شر سجن يتصوره الإنسان . إذ أن أعمق سرور يناله هو أن يزداد عظمة واتساعا باتصاله المتواصل بكل شيء فى الوجود . ومن المستحيل أن يكون هذا — كما قد رأينا — مالم يكن ثم قانون معروف للجميع . ونحن نصبح عظماء ونحقق الشمول فى نفوسنا باكتشاف القانون واتباعه ، ومادامت رغباتنا الشخصية تناقض قانون الكون فاننا نظل نعانى الآلام ، ونعيش فى عالم الباطل

جاء علينا حين من الدهر كنا نتوسل ونبتهل ليكون لنا فى الحياة اعتبار خاص ، وكنا نتوقع أن تسير قوانين الطبيعة وفق مانحب ونرضى . ولكننا أصبحنا الآن نعرف أكثر من ذى قبل أن القانون لا يمكن أن يهمل شأنه ، وبهذه المعرفة اكتسبنا القوى . إذ أن هذا القانون ليس شيئا منفصلا عنا ، أنه ملك لنا ، وقوة الشمول الظاهرة فى هذا القانون الشامل مرتبطة بقوانا برباط واحد . وهى انما تطردنا من طريقها حين نصغر ، ونقف أمام تيار الحياة ، وتساعدنا حيث نعظم ، ونرتبط

بسائر الأشياء . وهكذا نحن ننال القوة بمساعدة العلم ، حيث تزداد معرفتنا بقوانين الطبيعة ، ويصبح لنا جسم شامل . فالعضو الذى نبصر به والعضو الذى نستخدمه لانتقالنا ، وقوتنا المادية جميعاً ، تصبح شيئاً عالمياً . ويصبح البخار والكهرباء من أعصابنا وعضلاتنا .وهكذا نرى أنه كما يوجد فى نظام تركيبنا الجسمانى مبدأ اتصال نستطيع بفضله أن ندعو الجسم كله جسمنا ونستطيع أن نستخدمه كذلك ، فان هذا المبدأ الذى لاتنفصم صلاته ، يسود الكون أجمع . وبفضله نستطيع أن نزعم ان هذا العالم جميعه إن هو إلا جسم ممتد لنا . ونستخدمه على هذا الاعتبار وفى عصر العلم نحن جديرون أن نوجه اهتمامنا الى نفسنا العالمية وانا لنعرف أن كل ماينالنا من فقر وآلام إنما هو ناشىء عن عجزنا عن تحقيق هذه الدعوة المشروعة . لاشك أن قوانا لاتحد بحدود لأننا لانعيش بمعزل عن القوة الشاملة التى تعبر عن القانون العام فى الحياة . ونحن فى طريقنا للتغلب على المرض والفناء . والانتصار على الألم والفقر ، لأننا بالمعرفة العلمية لا نزال فى طريقنا نحو تحقيق الكون فى صورته المادية . وإنا لنجد ونحن فى سبيلنا نحو التقدم ، ان الألم والمرض والحاجة إلى القوة ، ليست بالشىء

النهائى فى الحياة . ولكن حاجتنا إلى المواءمة بين نفسنا العامة ونفسنا الفردية هى التى ترفع من شأنها

وكذلك نحن فى حياتنا الروحية . فحيثما تألب الانسان الفرد فينا على الدستور القانونى للانسان العام ، يصغر شأننا من الناحية الأخلاقية ومن ثم نحتمل الآلام . ويصبح نجاحنا والحالة هذه ، أكبر خيبة نصاب بها ويخافنا تحقيق رغباتنا أشد فقراً وعوذا اننا نتوق إلى اكتساب ربح خاص لنفوسنا ونود أن نحظى بمزايا لايشاركنا فيها أحد . ولكن كل شيء خاص محض ، لابد أن يظل فى حرب دائمة وكل شيء عام . ويعيش الانسان على الدوام ، فى مثل هذه الحرب الأهلية ، خلف الحواجز . وفى اى مدنية تقوم على الأنانية . لاتصبح أوطاننا أوطانا بمعنى الكلمة ، ولكن سدودا مصطنعة تحيط من حولنا . ونحن مع ذلك نشكو من اننا غير سعداء ، كأن امراً فطريا فى طبيعة الأشياء يجعلنا اشقياء أن الروح الشاملة تنتظرنا لتتوجنا بالسعادة ، ولكن روحنا الفردية تأبى عليها ذلك . وحيث كانت حية النفس الذاتية ، توجد التناقض والاضطراب . وتقلب النظام الطبيعى فى المجتمع ، وتثير سائر انواع الشقاء . وتضع الأمور فى ذلك المأزق الذى يسوقنا إلى وضع

قوانين مصطنعة وابتداع صور شتى للظلم ، لكي نحتفظ بالنظام ، ونحتمل فيما بيننا الأنظمة الجهنمية التي تذل الانسانية في كل لحظة من اللحظات .

فيتبين مما تقدم أننا إذا أردنا أن نكون أقوياء وجب علينا أن نخضع ارادتنا الفردية لسلطان الارادة العامة . ونعتقد بالحق الذي هو ارادتنا . فاذا وصلنا الى حيث تتم المواءمة بين المحدود وغير المحدود ، أصبح الألم نفسه من ذخائرنا الثمينة . لأنه سيكون بمثابة العصا التي نقيس بها القيمة الصحيحة لسرورنا .

إن أهم درس يستطيع أن يعرفه الانسان من حياته لم يكن معرفته الألم ، ولكن معرفته كيف يحول هذا الألم إلى خير ويصيره سروراً . إن هذا الدرس لم يضع علينا سدى . وليس بين الناس من يقبل عن رضا ، حرمانه من حقه في احتمال الألم لأنه حقه الطبيعي في أن يكون رجلا .

شكت إلى ذات يوم زوج عامل فقير بحرارة وحدة لأن ابنها الأكبر سيرحل إلى منزل أحد الأقارب الأغنياء جزءا من السنة ، وكانت محاولة التخفيف عنها تحز في نفسها وتبعث فيها الشجن . لأن ألم الأم ملك للأم ، بحكم حقها الذي لا يتحول في الحب .

ولم تكن لتحيطه بأى صفة تمليها عليها مقتضيات اللياقة . .

وليست حرية الانسان فى أن يتجنب المتاعب ، ولكن حريته فى أن يحتمل المتاعب فى سبيل خيره . وأن يجعل التعب عنصراً من عناصر السرور . ولا يكون ذلك إلا بادراكنا أن نفسنا الفردية ليست أسمى معنى فى حياتنا فهينا الانسان العالمى الخالد الذى لايخشى الموت أو الآلام ، وينظر الى الألم كوجه آخر من أوجه السرور أن من يدرك ذلك يعرف أن الألم هو ثروتنا باعتبارنا مخلوقات ناقصة وهو الذى يجعلنا عظماء فى الحياه ، ونستحق أن نحتل مكاننا من الكمال لأنه يعرف أننا لسنا متسولين . والعملة الصعبة هى التى يجب أن تبذل لكل شىء ثمين فى هذه الحياة : قوتنا وحكمتنا وحبنا . وفى الألم يرمز إلى إمكان الوصول إلى الكمال اللانهائى ، وانبثاق السرور الدائم . والانسان الذى يفقد سرور احتمال الألم إنما يغرق ويغوص إلى أسفل دركات العوز والانحطاط وإذا نحن توصلنا بالألم لتعظيم نفسنا أصبح شراً ومن ثم يأخذ انتقامه للاهانة التى لحقت به ويسوقنا إلى البؤس . لأنه العذراء المعدة لخدمة الكمال الأبدى فاذا ما احتلت مكانها الصحيح أمام اللانهاية أزالت قناعها القاتم وأسفرت عن وجهها للراغبين ، كمظهر للسرور الأسمى

مسألة النفس

أنا في ناحية من حياتي في وحـدة مع الحيوان والجماد . فأعرف مبدأ قانون الوجود الشامل الذي تقوم عليه دعائم حياتي وتمتد إلى الأعماق . وقوته في بقائه في قبضة الحياة الشاملة ، واتصاله التام بكل شيء في الوجود

ولكني من ناحية أخرى منفصل عن كل شيء ، و بذلك أقطع حبل المساواة وأقف وحدي كفرد منعزل ، فأنا وحـدة قائمة بذاتها ، أنا ، أنا ، وأنا شيء لايماثله شيء آخر . وان هذا السكون المتجمع بثقله لايسـتطيع أن يحطم فرديتي . فلا أزال أحتفظ بها على الرغم من التجاذب الشديد الذي يربطها بكل شيء في الوجود وانها لشيء صغير في مظهره ، ولكنها عظيمة في حقيقتها فهي تملك زمامها حيال تلك القوى العظيمة التي تحاول أن تسترق صفتها الذاتية وتجعلها هي والرغام على حد سواء

هـذا هو البناء الأسمى للنفس ، ينبعث من أعماق مصدره المجهول ومن ظلامه إلى العالم الظاهر . معتدا باستقلاله وانفصاله ،

مفاخراً بأنه يؤلف فكرة معينة واحدة من لدن (البناء) لا نظير لها فى سائر الكون

فإذا كان لهذه الفردية ان تتهدم ، فان معين ذلك السرور الذى يتألق فى أعماق نفسى يتلاشى ، وان لم أفقد شيئا من كيانى المادى ، أو تتحطم منه ذرة . اننا نفلس افلاسا تاما إذا حرمنا هذا التخصيص ، وسلبنا تلك الفردية التى هى الشىء الوحيد الذى نستطيع أن نقول انه ملك لنا والذى إذا خسرناه فخسارته فى نفس الوقت خسارة للعالم جميعه . وان له نفاسته ، لأنه ليس بالشىء العام . ولهذا فنحن عن طريقه وحده يمكننا أن ننال صلتنا بالكون أقرب مما لو كنا راقدين فى أحضانه غير شاعرين بما لنا من مميزات ان الكل يبحث على الدوام عن اكتماله فى الفرد الواحد وأن رغبتنا الملحة فى أن تكون وحدتنا سليمة ، هى فى الحقيقة رغبة الكون وسرورنا بغير المحدود (اللانهائى) الذى فى نفوسنا هو الذى يمدنا بالسرور الذى نحسه فى انفسنا .

ومما يدل على أن هذا الانفصال الذى تناله النفس هو أعز شىء لدى الانسان ، مايتحمله من المشاق وما يرتكبه من الخطايا فى سبيله . ولكن وعى الانفصال قد أتانا عن طريق التغذى بثمار

العلم . فقاد الانسان إلى العار والجريمة والهلاك . وهو مع ذلك يعد لديه أعز من أى فردوس تعيش فيه النفس . فى سنة من النوم وبراءة كاملة بين أحضان أمنا الطبيعة .

إنه لجهاد شاق وألم ممض ذلك الذى نتحمله فى سبيل المحافظة على انفصال هذه النفس . ولكن هذه الآلام فى الواقع تعد مقياساً لما لها من قيمة فى الحياة . ويظهر جانب من قيمتها فى التضحية التى ترينا مقدار الثمن الذى نبذله فى سبيلها والجانب الآخر فيما ندركه من كسب يرينا مقدار ما حصلنا عليه

وإذا كان ثم كسب متواصل فى الحياة . وكانت تلك الحياة لا تنتهى بنا إلى الفراغ والعدم ، بل إلى الامتلاء والوفر ، فان هذه المظاهر السلبية ، واعنى آلامها الشديدة وتضحياتها ، تجعلها أكثر نفاسة . وقد تبين انها كذلك لمن ادركوا عظمة الناحية الإيجابية فى النفس ، وتقبلوا مسئولياتها بشغف ، وتحملوا التضحيات فى غير إحجام .

وبالتقدمة السالفة يسهل على أن أجيب على سؤال القاه على أحد جلسائى يقول : اليست الهند هى التى سنت شرعة القضاء على النفس ، وجعلتها الغرض الأسمى للانسانية ؟

يجب أن يستقر فى أذهاننا أولا، إن الإنسان لم يكن قط يحسن التعبير عن أفكاره إلا فى أمور بالغة حد التفاهة، وكلماته فى الغالب لاتتألف منها لغة على الإطلاق وإنما هى مجرد إشارات صوتية تصدر من فم أبكم. وإذا دلت على شىء فانها لاتبين عن أفكاره. وكلما كانت فى أفكاره حياة كان من المستطاع فهمها من نصوص حياته. أما من يحاولون فهم معناه عن طريق المعجم فحسب، فانهم يصلون إلى الدار بطريق آلى فيقفون أمام الجدار من الخارج، ولايجدون سبيلا إلى قاعته. لهذا كانت تعاليم أرفع أنبيائنا مقاما مثار خصومات لاحد لها. إذ نحاول أن نفهمها بالجرى وراء ألفاظها، لا بإدراكها فى حياتنا. أما الذين قضى عليهم بأن يشقوا بموهبة العقل اللفظى فانهم التعساء الذين يشغلون بالشباك عن الصيد.

وليس مبدأ التجرد من النفس معروفا فى البوذية والديانات الهندية فحسب، ولكنه فى الديانة المسيحيه كذلك مما يقابل بالتحمس الشديد. وأخيراً فان رمز الموت كان يستعمل للتعبير عن الفكرة التى ترمى إلى تخلص الإنسان من الحياة الباطلة، وما أشبهه بنرفانا [١] التى ترمز إلى إنطفاء المصباح. يقال فى المأثور

(١) نرفانا: حالة من حالات فناء النفس وهى عند البوذيين اسمى حالات المعرفة والسعادة والتجرد عن الغايات

من آراء الهند أن تخلص الإنسان الصحيح هو تخلصه من افيديا أى من الجهل . وأنه لا يقضى بهذا على شيء إيجابى أو له صفة الحق ، فإن هذا أمر مستحيل ولكنه يقضى على شيء سلبى يخفى عنا منظر الحق . فإذا مازال هذا العائق ، وهو الجهل ، فليس إلا أن ترتفع الجفون ولا خسارة للعين .

إن جهلنا هو الذى يجعلنا نظن أن نفسنا ، كنفس ، تعد حقيقة ، و إن معناها يكتمل فى ذاتها ، ونحن إذ ننظر هذه النظرة الخاطئة إلى النفس نحاول أن نعيش فى حالة تكون النفس فيها هى الشيء الأخير فى حياتنا ، ومن ثم نساق إلى اليأس . كذلك الذى يحاول أن يصل الى غايته بأن يسير بخطوات راسخة على تراب الطريق .

إن نفسنا لاتحاول أن تقيدنا فان طبيعتها الانطلاق ، واذا نحن حاولنا أن نتعلق بخيط النفس الذى يجتاز مغزل الحياة ، فاننا لانساعد على تحقيق الغرض الذى يعمل لأجله القماش الذى ينسج فيه .

حين يمنى انسان عناية بالغة بتهيئة متعة لنفسه ، فيوقد ناراً ، وليس لديه عجينة يصنع منها خبزه ، فان النار تشتعل

ويأكل بعضها بعضا حتى تصير رمادا كالوحش الضارى ، الذى يأكل ذريته ثم يهلك .

فى اللغة المجهولة نجد للألفاظ شهرة طاغية . فهى تستوقفنا ولكن لا تقول شيئاً . واذا أردنا أن نتخلص من حكم الكلمات يجب علينا أن نخلص نفوسنا من إيقديا ، الجهل . فيجد عقلنا حريته المطلقة فى الفكرة الباطنة . وقد يكون من الغباء أن نقول أن جهلنا باللغة يزول بتحطيم الكلمات . كلا . ان العلم الصحيح حين ينشر ألويته تبقى كل كلمة فى مكانها ولا تربطنا الى جانبها ، بيد أنها تجعلنا نمر عن طريقها، وتقودنا الى الفكرة التى تحقق حريتنا .

وهكذا فان الجهل (افيديا) وحده هو الذى يجعل النفس قيداً من قيودنا ، إذ يجعلنا نخال أنها نهاية فى حدذاتها ، ويمنعنا أن نرى أن هذه النفس تشتمل على الفكرة التى تتعدى حدودها لذلك فان الرجل العاقل يقول (حرر نفسك من أفيديا) اعرف روحك الصحيحة ، وتحرر من قبضة النفس التى تضعك فى سجن ضيق .

إنما نحن ننال حريتنا حين نصل الى طبيعتنا فى أصح معانيها .

فالفنان يجد حرية فنه حيث يجد المثل الأعلى له . ومن ثم يتحرر من محاولات التقليد المتعبة ، ومن عوامل الاستحسان العام . وليست وظيفة الدين افساد طبيعتنا ولكن اتباعها . أن كلمة (دهرما) فى اللغة السنسكرتية [1] . التى اعتادوا أن يترجموها فى الإنجليزية بمعنى الديانة ، تحمل معنى أشد عمقاً فى لغتنا . فدهرما عندنا هى أعمق أعماق الطبيعة ، وجوهر الحق الثابت الذى يشمل سائر الأشياء . ودهرما هى الغرض الأخير الذى يعمل فى نفوسنا . فاذا وقع خطأ من الأخطاء قلنا إن دهرما قد انتهكت حرمته . ونعنى أن الباطل قد غشى طبيعتنا الصحيحة .

ولكن دهرما الذى هو الحق الكامن فى نفوسنا غير ظاهر لأنه حال فيها . وقد قيل أن الخطايا من طبع الإنسان وأن عناية خاصة من الله هى التى تخلص منها الشخص الذى تصطفيه . وذلك كقولنا ان من طبيعة الحبة أن تكمن فى قشرتها . وأنها بمعجزة من المعجزات تصبح شجرة . ولكن ألسنا نعرف أن مظهر الحبة يناقض طبيعتها الصحيحة . فاذا وضعتها تحت اختبار التحليل الكيمائى وجدت الكربون والبروتين وبعض المواد

---

(١) اللغة السنسكرتية : لغة الهند القديمة ، وهى لغة البراهمة . ولا يزال يتكلم بها فريق من الهنود فى الجنوب .

الأخرى ولكنك لاتجد الشجرة ذات الفروع . وإنما تتبين حقيقتها «دهرما» حين تظهر الشجرة وتأخذ صورتها . عند ذلك توقن أن الحبة التى فقدت وعرضت للفساد فى باطن الأرض قد حولت إلى دهرما الكائن بها . أى إلى كمال طبيعتها الصحيحة وقد رأينا فى تاريخ الإنسانية أن الحبة الحية التى فى نفوسنا تزهر وتتفتح ، وأن الغرض الاسمى الكائن فيها يتجلى فى حياة عظمائنا . وأيقنا أن حياة الكثير من الأفراد وإن كانت تظهر عديمة الأثر ، وإن دهرما الذى بها يظل مجدبا ، فانها لاتلبث أن تخرج من قشرتها ، وتتحول نفوس هؤلاء إلى قوة روحية كبيرة . تنمو وترعرع فى الهواء والضياء . وتنشر فروعها فى سائر الجهات .

إن حرية الحبة تظهر فى وصولها إلى دهرما الكامنة فيها . أى طبيعتها وحقها فى التحول إلى شجرة . وسجنها فى الوقوف عن هذه الغاية . وكذلك التضحية التى عن طريقها يصل الشىء إلى تمامه ليست بالتضحية التى تنتهى بنا إلى الفناء ، ولكنها إزالة العوائق والحدود ، التى عن طريقها ننال الحرية .

وإذا ماعرفنا اسمى مثل لحرية الإنسان ، عرفنا دهرما الكامن فيه . والجوهر الذى فى طبيعته ، والمعنى الصحيح الذى

فى نفسه . وقد يبدو لأول وهلة أن الإنسان إنما يعد هذه الحرية لينال عن طريقها فرصا لا تحد لارضاء النفس وتعظيمها . ولكن مما لاشك فيه أن التاريخ لايقودنا إلى هذا الحكم . فإن رجالنا الملهمين هم الذين كانوا يحيون دائماً الحياة التى تذهب إلى تضحية النفس . إن الطبيعة العليا الكامنة فى الإنسان ، تبحث على الدوام عما يسمو بها ولا يزال يعد أعمق حقيقة لها . ويستدعى سائر تضحياتها . ثم يجعل هذه التضحية جزاءها . وهذا دهرما الذى فى الإنسان . ونفس الإنسان هى السفينة التى تحمل هذه التضحية إلى الشاطىء الآخر .

نحن نستطيع أن ننظر إلى نفسنا من مظهريها المختلفين : النفس التى تظهر ذاتها . والنفس التى تسمو بها وتظهر معناها الصحيح . ولكى تظهر النفس ذاتها تحاول أن تكون كبيرة ، فتقف على قاعدة مما تجمعه ، وتستبقى كل شىء لأجلها . ولكن إذا أرادت أن تظهر حقيقتها فانها تهب كل مالديها ، لتبدو فى كمالها كالزهرة التى تنفتح من أكمامها ، وتصب من جام حسنها كل مافيها من جمال وعذوبة .

إن المصباح يحتوى على زيته الذى يحبسه فيه ويحوطه من الفقد

أو الخسارة وينفصل بذلك عن سائر ماحوله . وفى هذا بؤسه وظلامه . ولكنه إذا أضيء سرعان ما يجد معناه . وتتم صلته بسائر الأشياء بعيدها وقريبها ويضحى غرامته من الزيت بحريته ليغذى النار .

ونفسنا كهذا المصباح . تظل فى ظلام ما دامت تصون ماتملك . ويصبح خلقها مناقضاً لغرضها الصحيح . فإذا وجدت ضياءها نسيت نفسها لحظة ، ثم رفعت الضياء عاليا . أتستخدمه فى كل مالديها ، لأن فى ذلك انبثاقها وظهورها . وهذا الظهور هو الحرية التى يذكرها بودا فهو يطلب من المصباح أن يهب زيته. ولكن منح الزيت بغير غرض مايزال فقراً أشد حلكةً وهو ما لا يقصده على الاطلاق . يجب أن يهب المصباح زيته للضياء. وبذلك ينبعث الغرض الذى يحفظه فى أعماقه وهذا هو التحرر إن الطريق الذى أشار إليه بوداً لم يكن القعود عند تضحية النفس ، ولكن فى توسيع نطاق الحب . وفى هذا يظهر المعنى الصحيح لإرشاداته .

إننا إذا عرفنا أن حالة « النرفانا » التى يشير إليهـا بوداً

لاتكون إلا عن طريق الحب ، أيقنا بأن نزواتنا هي أسمى مايعرف من السمو في الحب . لأن الحب نهايته في حد ذاته . وكل شيء سواه يثير في نفوسنا هذا السؤال « لماذا » ونحتاج إلى تعليله . ولكننا حين نقول كلمة « أحب » لا يبقى محل لكلمة « لماذا » لأنه الجواب الأخير في ذاته .

لا شك أن كل شيء حتى حب النفس يسوق الانسان إلى ان يهب ، ولكن محب نفسه يفعل ذلك مجبرا عليه . كما تقطف الثمرة قبل نضوجها . فتمزقها من شجرتها وتخدش فرعها . ولكن الانسان حين يحب . يصبح الاعطاء لديه نوعا من السرور كالشجرة حين تحاط بالفاكهة الناضجة من سائر الجوانب .

إن سائر ما نملك من ملك ومتاع يثقلنا بجاذبية الرغبات المنبعثة عن محبة النفس ، ولا نستطيع أن نتركه بسهولة . وكأنه شيء صادر عن طبيعتنا ، ملاصق لنا كجلد آخر لجسمنا وانا لندمى إذا انتزع منا شيء منه إلا انه حين يستولى علينا الحب تنقلب الحال وتصبح قواه وهي تعمل على النقيض من ذلك . فنجد أن هذه الأشياء التي تلازمنا تفقد ملازمتها وتتخلى عن ثقلها . ونعرف انها ليست منا ، ولا نشعر بخسارة على الاطلاق عند تركها . بل اننا لنجد في ذلك موافقة لطبيعتنا .

وهـكذا نجد فى الحب الصحيح تحرير نفسنا ، ونعرف أن مايعمل عن طريق الحب هو وحده الذى نعمـله بحريتنا ، مهما يسبب لنا من آلام . لذلك فإن العمل فى سبيل الحب حرية فى العمل . وهذا هو المعنى المقصود فى (الجيتا) بعبارة العمل بعيداً عن الغرض .

يقال فى (الجيتا) يجب علينا أن نعمل ، لأننا بالعمل وحده نستطيع أن نظهر طبيعتنا إلا أن هذا الاظهار لايكون تاما مادام عملنا لم يتحرر . وفى الواقع ، أن طبيعتنا محجبة بالعمل الذى يعمل تحت ضغط الحاجة أو الخوف . ان الأم تظهر نفسها بخدمة أطفالها وكذلك حريتنا الصحيحة ليست الحرية المستمدة من العمل ، ولـكن الحرية فى العمل ، ولايمكن أن تنال إلا بفعل الحب وعمله يتجلى الله فى صنع الخليقة . ويقال فى الاپنشاد : إن المعرفة والقوة والعمل تنبعث من طبيعته وليست مفروضة عليه من الخارج لذلك فإن حريته فى عمله ، وهو فى خليقته يحقق نفسه . ويقال هذا فى ناحية أخرى بعبارة أخرى : « ان من السرور تنبعث هذه الخليقة جميعاً ، وفى السرور تعيش ، ونحو السرور تتقـدم . وفى السرور تدخل » ومعنى هذا أن خليقة الله لا تستمد ينبوعها من الضرورة أيا كان نوعها ؛ انها تنبعث عن السرور الذى يمتلىء

به؛ وان حبه هو الذى يخلق ؛ واذن فان خليقته هى الصورة التى يتجلى فيها .

إن الفنان الذى يجد سروراً فى إكمال فكرته الفنية يستعرضها وكلما أبعدها عنه امتلأت نفسه بها . والسرور هو الذى يفصل نفوسنا عنا ثم يهبها صورة فى مخلوقات الحب ليجعلها أتم اتصالا بنا . إذن فلابد من هذا الانفصال ، ولكنه انفصال الحب لا انفصال الكراهية . إن الكراهية لها عنصر واحد وهو عنصر الشدة . ولكن الحب له عنصران . عنصر الشدة وهو مظهر فحسب وعنصر الوحدة وهو الحق الأخير . وأنه فى ذلك كالاب حين يقذف ابنه إلى أعلى و يبدو كأنه ينبذه والحقيقة على خلاف ذلك .

وهكذا يجب أن نعرف أن معنى نفسنا لايتبين فى انفصالها من الله ومن الآخرين ، ولكن يتبين فى تحقيقها المتواصل ليوجا اى الوحدة لا من الناحية الفارغة من القماش ، ولكن من الناحية التى تملؤها الصورة .

من أجل هذا كان فلاسفتنا يصفون انفصال النفس بأنه مايا أى باطل ، لأنه ليس له حقيقة فى ذاته وانه ليبدو شيئا خطرا وانه ليدفعها فى عزلتها إلى علو طائش و ينشر ظلا قاتما على وجه الوجود .

فتبدو فى حالة من التمزق المباغت والتمرد والتدمير، متكبرة متغطرسة عنيدة. وإنها لعلى استعداد دائم لأن تسترق ما فى الحياة من ثروة لتتضمن شهوتها لحظة واحدة، وتنتزع بيد طائشة قاسية كل ما يحمله طائر الجمال المقدس من الريش لتزين قبحها يوما واحداً. لاشك أن فى تاريخ الانسان ما يسم جبهته إلى الأبد بسمة العصيان القاتمة اللون. ولكن هذا جميعه ما يزال (مايا) أى انه باطل يغشيه الجهل. انه الضباب وليس هو الشمس وانه الدخان الأسود الذى ينبىء عن نار الحب.

تصور همجيا فى جهالته يظن أن الورقة المالية لها السحر الذى به يستطيع مالكها أن ينال كل ماتصبو إليه نفسه. فيلف الورق ويخفيه، ويتناوله بسائر الطرق الباطلة إلى أن يصل إلى النتيجة وهى أن هذه الأوراق لاقيمة لها فى ذاتها على الإطلاق. وأنها لا تصلح إلا أن يلقى بها فى النار. ولكن الرجل العاقل يعرف أن الأوراق المالية جميعها (مايا) ولا تكون نافعة إلا إذا سلمت إلى المصرف. ان أڤيديا — أى جهلنا هو الذى يجعلنا نعتقد أن انفصالنا من نفسنا له قيمة كالورقة المالية فى ذاتها. ونحن إذ نعمل تحت تأثير هذا الاعتقاد تصبح نفسنا لاقيمة لها. ولكن حين يذهب الجهل (أڤيديا) تعود لنا هذه النفس ذاتها بثروة لاتقدر

لأنه يظهر نفسه فى صور لاتفنى كما يتطلبه سروره ، وهذه الصور منفصلة عنه ، وقيمتها بسروره الذى يمنحه لها . فاذا حولنا هذه الصور إلى ذلك السرور الأصيل ، وهو الحب ، استطعنا أن نقدمها إلى المصرف ومن ثم نجد حقيقتها .

حين يساق الانسان إلى عمله بمحض الضرورة يسير وفق المصادفة والاتفاق ويصبح العمل نوعا من التبديد المصطنع . فاذا غيرت الضرورة مجراها ترك هذا العمل ، وخلف وراءه الدمار ولكن إذا كان عمله منبعثا عن السرور ، تسكون للصور التى يتخذها عناصر الخلود والخلود فى الانسان يهبه نوع بقائه .

إن نفسنا لاتفنى وهى صورة من سرور الله . وذلك أن سروره «أمر يتام» ، دائم . وهذا مايجعلنا نشك فى الموت ، وإن كان لايشك فيه . ولكى نتفادى هذا التناقض الكائن فينا ونوفق بينه يجب أن نصل إلى هذه الحقيقة وهى إن ثمة وحدة فى ازدواج الموت والحياة ونحن نعرف أن حياة الروح المحدودة فى تفسيرها واللانهائية فى مبدئها يجب أن تمر من أبواب الموت وهى تسعى فى طريقها نحو تحقيق اللانهائى . إن الموت شيء فردى ، لاحياة فيه . ولكن الحياة شيء مزدوج . له مظهر وحقيقة . فالموت هو ذلك المظهر « المايا » وهو رفيق لايفارق

الحياة . ولكى تبقى نفسنا يجب أن تمر فى طريقها بتغير متواصل وازدياد فى صورتها . وقد ينتهى هذا إلى موت دائم وحياة دائمة يسيران جنباً إلى جنب فى وقت واحد . إننا فى الحقيقة نطلب الموت حين نرفض أن نقبل الموت . ونريد أن نجعل للنفس صورة لا تتغير . فلا تحس أى دافع يحفزها إلى الظهور ، ونجعل حدودها شيئا نهائياً لها ، ثم نعمل على هذا الاعتبار . وتأتى دعوة معلمينا إلى الموت . إنها ليست فى الحقيقة دعوة إلى الفناء ولكن إلى الحياة الخالدة .

وتعنى غروب المصباح عند شروق نور الصباح . ولا تعنى زوال الشمس . وهى فى الحقيقة بمثابة دعوة إلى تقدير الرغبة الباطنة ، الكامنة فى أعماق طبيعتنا عن طريق الوعى .

ويختلج فى كياننا الانسانى نوعان مزدوجان من الرغبات ، يجب علينا أن نعمل لتوحيدهما . احدهما يدخل فى دائرة طبيعتنا المادية ، وننميه على الدوام . فنحن نريد أن نستمتع بطعامنا وشرابنا ، ونسعى وراء المسرات الجسمية والراحة . وهذه الرغبات مركزة فى النفس ، وتهتم اهتماما فرديا بدوافعها الذاتية . فرغبات الخلق تسير غالبا وفق ماتسمح به المعدة .

ولكن لدينا نوعا آخر ، وهو رغبة دستورنا الجسمانى بصفة عامة ، ونحن لا نعيها عادة لأنها من إرادة الصحة . وتقوم بعملها

فى الاصلاح والتعديل ، وتخلق مواءمة جديدة كلما ألم بنا حادث وتسوى الميزان بمهارة فائقة حيث يضطرب . ولا شأن لها بنجاح رغباتنا الجسمية المباشرة . ولكنها تسير الى ما وراء الآونة الحاضرة وتعد مبدأ كياننا الجسمانى بصفة عامة ، وتصل حياتنا ماضيها بمستقبلها ، وتستبق وحدة أجزائها . والانسان العاقل يعرف هذه الرغبة ويوفق بينها و بين رغبات جسمه الأخرى .

و إن لنا جسما أكبر وهو الجسم الاجتماعى . فالمجتمع نظام لنا رغباتنا الذاتية فيه باعتبارنا أجزاء منه . فنريد مسرتنا وحريتنا . نريد أن نبذل أقل من كل انسان ونجنى أكثر من كل انسان ومن ثم تنشأ المناضلات والمشاحنات . ولكن ثمة الرغبة الأخرى الكامنة فينا ، تعمل عملها فى اعماق الكائن الاجتماعى . وهى الرغبة فى خير المجتمع . انها تتخطى حدود الحاضر وتتعدى كل ماهو شخصى لأنها تنحاز إلى جانب اللانهائى .

والعاقل من يوحد بين الرغبات التى تعمل على ارضاء النفس و بين الرغبة فى إسعاد المجتمع . و بذلك وحده يستطيع أن يحقق نفسه العليا . والنفس تعى انفصالها فى وضعها المحدود . فهى لاتعرف الرحمة فى محاولتها أن يكون لها نصيب أوفى من غيرها ولكنها فى وضعها اللانهائى تصبح رغبتها أن تنال هذه الوحدة

التى تؤدى إلى كمالها لا إلى عظمتها فحسب .

فتحرير طبيعتنا الجسمية فى الوصول إلى الصحة ، وتحرير كياننا الاجتماعى فى نيل الخير ، وتحرير نفسنا فى الوصول إلى الحب والأخير هو مايصفه بودا بالفناء . أى فناء الأنانية . وتلك وظيفة الحب . وهى لاتقود الى الظلام ،ولكن الى الضياء .وهو الوصول إلى (بودهى) أو اليقظة الصحيحة . وتجلى السرور اللانهائى فى نفسنا بنور الحب .

إن رسالة نفسنا تنبعث من نفسيتها وهى مستقلة للوصول الى الروح حتى يتم التوافق بينهما . وهـذا التوافق لايكون لزاما . وهكذا فان إرادتنا فى تاريخ تقدمها تتقدم فى استقلالها وعصيانها نحو الكمال الأخير . ويجب عليها أن تقدر احتمال الوضع السلبى وهو الترخيص الذى ننا له ، قبل أن نصل إلى الحرية الإيجابية . وهى الحب .

وتستطيع هذه الحرية السلبية . حرية الارادة النفسية أن تولى ظهرها دون أسمى مالديها من الادراك . ولـكنها لاتستطيع أن تفصل نفسها عنه انفصالا كليا لأنها بذلك تفقد معناها . إن إرادتنا النفسية لها حريتها إلى حد محـدود . وهى تستطيع أن تعرف

مايجب أن يزال من الطريق ، ولكنها لا تستطيع أن تستمر في هذا الاتجاه إلى غير حد . فنحن محدودون من ناحيتنا السلبية . ويجب أن نقف عند حد في أعمالنا السيئة ،وفي تيار نظامنا الفاسد لأن الشر ليس بالشيء اللانهائي ، والفساد لايكون نهاية في حد ذاته . إن ارادتنا تنال الحرية لكي تدرك أن طريقها الصحيح هو الذي يؤدي بها إلى الخير والحب . لأن الخير والحب شيئان لا نهائيان ، وفي اللانهائية وحدها تحقيق الحرية الممكنة في أتم صورها . وهكذا فان أرادتنا لاتكون حرة في حدود نفسنا حيث تكون (مايا) وسلبية ولكن في سيرها نحو غير المحدود حيث الحق والحب . ولا تستطيع حريتنا أن تسير عكس مبدأ حريتها وتكون حرة بعد ذلك أو تنتحر ثم تدعي الحياة . ولا يمكننا أن نقول اننا يجب أن ننال حرية لانهائية لكي نقيد أنفسنا ، لأن القيد يقضي على الحرية .

كذلك نحن في حرية إرادتنا نجد نفس الازدواج القائم بين المظهر والحق — فإرادتنا النفسية ليست سوى مظهر الحرية والحب هو الحقيقة . وإذا حاولنا أن نجعل هذا المظهر مستقلا عن الحقيقة فان محاولتنا هذه تنيء علينا بالبؤس . وتبرهن في النهاية على

قحوتها . ولكل شيء في الحياة . هذا الإزدواج (مايا وستيام) أي المظهر والحقيقة . فالكلمات تكون (مايا) حيث تصبح محض أصوات وتكون محدودة . وتكون (ستيام) حين تصبح فكرة وتكون لا نهائية . فنفسنا (مايا) حيث تكون فردية محدودة . وحيث تمد انفصالها شيئاً نهائياً . وهي ستيام حين تدرك جوهرها في الشمول واللانهاية في النفس العليا في (باراماتمان) وهذا ماقصده المسيح بقوله (قبل ابراهيم كنت أنا) . فهذه الأنا الأبدية هي التي تتكلم في أنا الكائنة في نفسي . وأنا الفردية تصل إلى غايتها الصحيحة حين تحقق حريتها اتحادها بأنا اللانهائية وهنا يبدأ انطلاقها من أسر (مايا) المظهر الذي يصدر عن (أفيديا) الجهل . ويظهر تحررها الصحيح في موضع الحق ، والقوة الصحيحة للخير . والارتباط التام برباط الحب .

إن هذا الانفصال عن الله لا يوجد في نفوسنا فحسب ولكنه في الطبيعة كذلك . ويصفه فلاسفتنا بأنه (مايا) لأن الانفصال لا يكون بنفسه ، ولا يمكن أن يحد لانهائية الله من الخارج وإرادته هي التي تضع حدوداً لنفسها . كما يفعل لاعب الشطرنج وهو يحد من إرادته ، ويقيدها بحركة القطع التي أمامه . ويدخل طائعا في

علاقاته المحدودة بكل قطعة بذاتها ، ثم يحقق سرور قوته بهـذه الحدود نفسها وليس معنى ذلك أنه لا يستطيع أن ينقل قطع الشطرنج كما يشاء ، ولـكنه إذا فعل ذلك لا يبقى ثم محل للعب . وإذا كان الله يطلق لقدرته المعجزة عنانها . فإن خليقته تصل إلى نهايتها وتفقد قدرته كل معنى لها ، إذ أن القوة لا تـكون قوة إلا إذا كانت تعمل فى حدود . فماء الله يجب أن يكون ماء وأرضه لن تـكون إلا أرضا . والقانون الذى جعلهما ماء وأرضا هو قانونه الذى به قد فصل بين اللعبة واللاعب . لأن فى ذلك سروره .

وكما أن الطبيعة تنفصل عن الله بحدود القانون . فان حدود الذاتية هى التى تفصل بين النفس وبينه . وإنه بإرادته يضع حدودا لإرادته ويعطينا السيادة على عالمنا الصغير . وهو فى هذا كالأب حين يهب ابنه مقداراً من المال ويجعل له حرية التصرف فى حدوده . فهذا المال وإن كـان يظل جزءاً من ملك الأب . إلا أنه يخرجه من نطاق إرادته . والسبب فى ذلك هو أن الإرادة وهى إرادة الحب التى تستمد منه حريتها لا تصل إلى تلك الحرية إلا باتحادها بإرادة حرة أخرى . والطاغية يعتمد كل الاعتماد على عبيده الأرقاء ، وعلى ذلك فهو يعمل على جعلهم نافعين له كل النفع بإخضاعهم

لإرادته . ولكن المحب لابد أن تكون له إرادتان لتحقيق حبه . إذ أن كمال الحب لايكون إلا بالتوافق، والتوافق لايكون إلا بين حريتين . وهكذا فان حب الله الذى تتخذ نفسنا صورة منه قد فصلها عن الله . وحب الله هو الذى يعود فينشىء الوحدة ويصل بين الله وبين نفسنا فى ظل هذا الانفصال . وهذا هو السبب الذى يجعل نفسنا تسير فى طريق التجدد الذى لاحد له . لأنها لا تستطيع أن تسير فى تيار الانفصال إلى الأبد . فالانفصال هو النهاية التى تجد فيها حدودها تتراجع شيئاً فشيئاً إلى منبعها اللانهائى .

ومن واجب النفس أن تطرح سنها على الدوام وتمد من حدوده فى عالم النسيان والموت ، لكى تحقق شبابها الخالد . ويجب أن تنبثق شخصيتها فى العالم الشامل آنا بعد آن وتمر منه بالفعل كل لحظة على الدوام حتى تجدد حياتها الفردية . وعليها أن تساير النغم الأبدى وتلمس الوحدة الجوهرية فى كل خطوة وبذلك يظل انفصالها فى توازن بين الجمال والقوة

إننا نشاهد فى كل مكان قصة الحياة والموت — أو تحول القديم إلى جديد . وان اليوم ليقبل علينا كل صباح عريان أبيض

غضا كالزهرة . وان كنا نعلم أنه قديم . إنه القدم بعينه . فهو نفس اليوم العتيق الذى استقبل الأرض وهى مولود جديد بين زراعيه وغطاها بدثاره النورانى و بعثها قدما إلى رحلتها بين الكواكب

أقدامه لم يدركها النصب وعيونه لم تصلها غشاوة . فهو يحمل العوذة الذهبية من الابد الذى لايكبر . و بلمسة منه تمحى سائر الغضون من وجه الخليقة . أن فى أعماق قلب العالم شبابا لا يفنى . و يضع الموت والاضمحلال على وجهه ظلالا وقتيه لاتلبث أن تزول ، ولا تترك أثراً لخطواتها . و يبقى الحق غضا يانعاً .

ان هذا اليوم العريق فى القـدم . يولد ثم يولد كل صباح . و يعود إلى حيث تقف موسيقاه . فإذا كان مسيره فى خط مستقيم لاحدله ولم يكن له ذلك الموقف الرهيب إذ ينغمس فى هوة الظلام ثم يولد ثانية فى الحياة التى لاتنتهى لها بداية ، فانه يرث مع الزمن و يدفن الحق بترابه ، و ينشر على الارض قتاراً لاينقطع من أثر خطواته الثقيلة ومن ثم تخلف كل لحظة عبء أثقالها ونصبها ، و يتبوأ العجز عرشه فى ظل القذارة الابدية .

ولكن اليوم يولد كل صباح مع الازهار المتفتحة حديثاً .

حاملا نفس الرسالة التى تتكرر والتوكيد الذى يتجدد : بأن الموت يموت أبدا ، وأن الأمواج المائجة لاتتجاوز الأديم الظاهر ، وأن بحر السكينة لاقرار له . وليس إلا أن ينجاب ستار الليل و يظهر الحق لا تعلو قفازه ذرة من تراب أو يبدو على وجهه اخدود من غضون السن .

فنحن نرى أن ذلك الذى هو قبل كل شىء يبدو اليوم كما كان . وان كل نغمة فى لحن الخليقة تخرج غضة من فيه . وليس السكون مجرد صدى يتكرر من سماء إلى سماء كالآفاق الذى لامأوى له ، أو صدى أغنية قديمة ألقيت فى ظلام البداية ثم عاشت يتيمة . إنه ليخرج كل لحظة من قلب السيد ، ويتنفس فى أنفاسه

لذلك فهو ينتشر فى أنحاء السماء كالفكرة فى الصورة الشعرية ، ولا ينفصل إلى أجزاء تحت ضغط ثقله المجتمع . ومن ثم كانت الصور العديدة التى تذهل العقول . وحدوث مالا يمكن تعليله فى الحياة . وموكب الافراد الذين لا يشبه أحدهم الآخر فى الخليقة . ولا تنتهى البداية فى البدء والنهاية . والعالم قديم إلى الأبد جديد إلى الأبد .

إن نفسنا يجب أن تعرف أنها تولد جديدة كل لحظة من حياتها ويجب أن تتحرر من سائر الأوهام التي تحبسها في قشرتها وتظهرها في مظهر الكبر، وتثقلها بعبء الموت.

فالحياة شباب أبدى، وإنها لتكره الشيخوخة التي تعرقل مسيرها، ولا تنتمي للحياة في حقيقتها، وإنما تتبعها كما يتبع الظل المصباح.

وحياتنا كالنهر إنما يضرب شطآنه لا ليجد أنه محبوس بينها ولكن ليدرك على الدوام، أن له مصرفه الذى لانهاية له إلى البحر. وهي كالقطعة من الشعر التي تصطدم بأوزانه في كل خطوة ولا تريد أن تسكت تحت أعباء قيودها الشديدة، ولكنها تريد بذلك أن تعبر في كل لحظة عن حرية وحدتها الباطنة.

إن أسوار فرديتنا تردنا نحو حدودنا من ناحية، وتقودنا من ناحية أخرى إلى غير المحدود. ونحن حين نريد أن نجعل هذه الحدود لا نهائية نقع في التناقض وننال خيبة الشقاء.

وعلى هذا تقوم الثورات العظمى في تاريخ الانسانية. حينما يحتقر الجزء الكل، ويحاول أن يشق لنفسه طريقا منفصلا عن غيره. فتدفعه القوة الكلية دفعة عنيفة وتوقفه بغتة ثم ترغمه في

التراب . وحينما يحاول الفرد أن يضع سدا لتيار قوى العالم المتدفقة، ويحبسها فى نطاق فائدته الذاتية فإنها تؤول عليه بالدمار . وكيفما تكون قوة الملك فانه لايستطيع أن يشهر سطوة عصيانه فى وجه منبع القوة اللانهائى ؛ وهو الوحدة ، ثم يظل قويا .

لقد قيل : إن الناس يفاخرون بالباطل ، و يظفرون برغباتهم وينتصرون على أعدائهم ، ولكنهم يقتلعون من جذورهم فى النهاية ويحتماون الفناء . فإذا أردنا أن ننال العظمة الشخصية وجب علينا أن نمد جذورنا فى أعماق السكون

إن غاية نفسنا هى أن تبحث عن هذه الوحدة ، وعليها أن تحنى رأسها للحب والوداعة . وتتبوأ مكانها حيث يلتقى الكبير والصغير . وتربح بما تفقد وترتفع بما تحيط . إن لعبة الطفل لترعبه إذا لم يرجع إلى أمه ، وإن زهونا بشخصيتنا يكون لعنة علينا إذا لم نهبها للحب . ويجب أن نعلم أن إنبثاق اللانهائى فيناهو الذى يبقى جديداً إلى غير حد ، و يظل جميلا إلى الأبد ، وهو الذى يهب المعنى الذى لامعنى سواه .

تحقيق الحياة فى الحب

الآن نصل إلى البحث فى تلك المسألة الأبدية ، مسألة اجتماع اللانهائى بالنهائى ، والكائن الأعلى بروحنا الإنسانية . ومن ثم يظهر التناقض المتغلغل فى جذور الوجود . ولا نستطيع أن نحوم حول هذا الموضوع ، لأننا لانستطيع أن نقف بمعزل عن المشكلة ونزنها أمام سائر الاحتمالات . ولكن هذه المشكلة لا وجود لها إلا فى عالم المنطق . أما فى الحقيقة فهى لاتقيم أمامنا صعوبة أيا كان نوعها . وإذا تكلمنا عن طريق المنطق ، وجدنا أن البعد بين نقطتين ، مهما يكن قرب إحداهما من الأخرى . يصح أن يقال أنه لانهائى . إذ أنه من المستطاع أن يقسم إلى أجزاء لاحد لها . ولكننا فى الحقيقة نقتحم اللانهائى فى كل خطوة ، ونتصل بالأبد فى كل لحظة . مما جعل بعض فلاسفتنا يقولون ليس فى الوجود ما يسمى بالمحدود . أنه (مايا) أى تصور خاطىء . أما الحقيقة فهى فى اللانهائى وأن ما نسميه (مايا) أو الباطل هو الذى يرينا صورة المحدود . ولكن كلمة مايا لفظ فحسب وليست معنى . وهو كقولنا إن الحق تصحبه تلك الصورة التى تخالف الحق . ولكن كيف اجتمعا فى وقت واحد معا فهذا مالا ندركه .

إن في حياتنا ما نسميه في اللغة السنسكريتية (ڤاندڤا) سلسلة من الأشياء يخالف بعضها بعضاً ، كالجانب الإيجابي والجانب السلبي . والقوة المتقاربة والقوة المتباعدة ، والشيء الذي يجذبنا إليه والشيء الذي يصدنا عنه ، وهذه كذلك ليست إلا أسماء فحسب ، وليست تفسيراً . فهي طرق مختلفة تثبت أن العالم في جوهره مجموعة مزدوجة من القوى المضادة . وهذه القوى بمثابة اليد اليمنى واليد اليسرى للخالق ، وهما تعملان في اتحاد كامل ، وإن كانتا تعملان من ناحيتين مختلفتين .

إن بين عينينا الاثنين وحدة اتصال تجعلهما يعملان في اتحاد تام . كما أن في عالم الطبيعة اتصالا لا ينقطع بين الحرارة والبرودة ، وبين الضياء والظلام . وبين الحركة والراحة . كذلك الاتصال الذي يجمع بين القرار والثاث في نغمات البيانو . لذلك كان هذا الاختلاف في الحياة ولم يحدث بسببه إخلال في نظام الكون بل قامت فيه وحدة وانتظام . وإذا كانت الخليقة شيئاً متنافراً فاننا خليقون أن نتصور كيف يتزاحم كل من هذين المبدأين المتضاربين ليفوز كل منهما على الآخر . ولكن الكون لا يخضع في سيره لنظام عسكري ، يقوم على الاستبداد ثم يدركه الزوال .

فنحن فى هذا المقام لانجد قوى تنطلق على غير هدى ، أو تسير بغير حدود فى طريقها الوعر ، كالسجين الخارج على القانون ، وتقطع كل صلة بينها و بين مايحيط بها . كلا . أن الأمر نقيض ذلك . فان كل قوة من هذه القوى تعود فى خط منحن إلى حيث تتم المواءمة بينها جميعاً .

إن الأمواج تعلو ، وترتفع كل موجة منها ارتفاعها الفردى وتبدو كأنها فى صراع مستمر ، ولـكن إلى حد محدود . و يظهر هذا فى هدوء البحر الذى تتصل به جميعاً ، وتعود أدراجها إليه فى نظام توقيعى ، آية فى السحر والجمال .

والواقع أن هـذا التموج والاهتزاز ، وهذا العلو والهبوط ، لا يرجع جميعه إلى خطأ مصدره تنافر الأجساد ، ولـكنه فى فى الحقيقة رقص موقع . والتوقيع لايصدر عن صراع متنافر فى معركة ، لأن مبدأه القويم الوحدة لا التنافر والاختلاف .

وهذا المبدأ الذى قوامه الوحدة هو سر الأسرار . فالازدواج يثير فى عقولنا سؤالا ، نجد جوابه فى الوحدة . فاذا وصلنا فى النهاية إلى وجود علاقة بين هذين الاثنين ، ووجدنا أنهما شىء واحد فى جوهره ، أحسسنا بأننا وصلنا إلى الحقيقة ، ووضعنا حداً

لأشد المتناقضات لدينا ، وهو أن يبدو الواحد متعدداً ، وأن يخالف المظهر الحقيقة ، وإن كان يتصل بها اتصالا لاينفصم .

ومما يبعث على العجب أن يفقد بعض الناس شعورهم بهذه الأسرار ، التى تتغلغل فى أعماق مسراتنا . وهم يكتشفون وحدة القانون فى وجوه الطبيعة المختلفة . وكأن قانون الجاذبية لايعنى فى نظرهم أكثر من سقوط تفاحة على الأرض . وقانون التطور من نوع الى نوع آخر فى سلم الخليقة ، ليس أكثر من تعاقب المخلوقات . والعناء فى هذا هو أننا كثيراً مانقف حيال مثل هذا القانون ، كأنه غاية بحثنا ، ثم لانجد أنه قد بدأ فى تحرير روحنا . وأنه ليس سوى شىء يرضى تفكيرنا ، وما دام لم يرض سائر وجودنا فانه يقتل فينا روح الإحساس باللانهاية .

اننا اذا نظرنا بطريق التحليل الى قطعة من الشعر الرفيع ، وجدنا أنها ليست سوى مجموعة من الأنغام والأوزان ، ولكن القارىء الذى يستخرج المعنى وهو الرابطة الداخلية التى تصل هذه الأنغام فى ظاهرها . يكتشف قانوناً صحيحاً فى القصيدة يتسلسل فى سائر أبياتها ، ولا يناقضها فى شىء على الاطلاق ، ذلك هو قانون تطور المعانى ، قانون الموسيقى والشكل .

إلا أن القانون حدفى ذاته . وانه ليرينا أن ليس فى الامكان أحسن مما كان . وكذلك شأن الإنسان الذى يجعل كل همه البحث عن حلقة الحوادث والأعراض ، يخضع لسلطان القانون وهو يحاول أن يفر من سلطان الحوادث . اننا حين نعمد إلى تعلم لغة فنحفظ الكثير من مفرداتها . إنما نتعلم قانون الكلمات . و إذا وقفنا عند كل موضع ، وعنينا بتكوين اللغة والبحث وراء تطوراتها المختلفة . لانصل إلى الغاية . إذ أن النحو غير الأدب ، والعروض شىء غير الشعر .

فإذا جئنا للأدب وجدنا أنه نوع من السرور ، وان كان يشمل قواعد اللغة ، انه الحرية بعينها . وجمال الشعر مقيد بقوانين رفيعة ، وان كان يعلو عليها . والقوانين للشعر بمثابة الأجنحة ، لاتثقله بحيث يهبط الى الحضيض ، ولكنها ترتفع به الى آفاق الحرية . فقالبه مقيد بالقانون ، وروحه تخفق بالجمال . والقانون هو الخطوة الأولى نحو الحرية ، والجمال هو الحرية ، الكاملة القائمة على قاعدة القانون . والجمال يوفق فى نفسه بين الحد وما وراءه . و بين القانون والحرية .

فى الشعر العالمى ، نجد أن الوصول الى قانون نظمه ، وحركاته

ووقفاته ؛ وتتبع تطور صوره وشخصياته ، يعد علامة من علامات النجاح الفكرى ، ولكننا لا نستطيع أن نقف عند هذه الغاية ، فهى كمحطة القطار ، ولكن افريز المحطة ليس دارنا . ولا يصل إلى الحق النهائى إلا من يعرف أن العالم أجمعه خلق سار . ويقودنى هذا إلى التفكير فى مقدار ما بين قلب الإنسان و بين الطبيعة من أسرار . أن للطبيعة مظهراً معينا فى عالم النشاط الخارجى ، ولكنها فى قلوبنا وفى العالم الباطن لها صورة تختلف كل الاختلاف .

خذ مثلا زهرة نبات من النباتات . كيفما كان جمالها ونضرتها فهى مخلوقة لتؤدى عملا كبيراً . وان ألوانها وصورها جميعها مهيأة لتكون ملاءمة لعملها . فعليها أن تخرج الفاكهة ، و إلا انقطعت حياة النبات المتواصلة . وانقلبت الأرض إلى صحراء قاحلة قبل وقت طويل . إذن فقد خلق لون الزهرة وعبقها لغرض معين . فإذا لقحتها النحلة وجاء وقت ثمارها ، خلعت أوراقها البديعة ، وأجبرت بعوامل اقتصادية قاسية ، إلى أن تنعم أنحتها الجميلة ، وليس لديها وقت لتزهى بجمالها . فهى فى شغل عن كل شىء . و إذا نظرنا إلى عالم الطبيعة خارج نفوسنا بدا لنا أن الضرورة فيها هى العامل الذى يعمل كل شىء لأجله ويتحرك من أجله . فنحن

ترى أن البرعم يتحول إلى زهرة ، والزهرة تصبح ثمرة ، والثمرة تصير حبة ، والحبة تعود نباتا جديداً مرة ثانية . وهكذا تسير حلقة نشاطها بغير انقطاع . فإذا نشأ وقوف أو اضطراب لم يكن الاعتذار عنه مقبولا ، فان ما يقضى عليه سوء الحظ بأن يختنق فى حركته بهذه الصفة، يجمع وينبذ ويسلم للفناء ويختفى عاجلا . وفى ديوان الطبيعة العظمى إدارات عديدة ، تناط بها أعمال لا يدركها الحصر . فالزهرة البديعة التى ترتدى حلل الجمال ،وتنفح أريجها كالفتى الأنيق ، ليست فى الحقيقة كما تبدو ، بل هى أقرب شبها بالعامل الذى يقضى وقته فى الشمس والمطر ، ليقدم حسابا دقيقاً عن عمله ، وليس لديها متنفس للمتعة أو المرح .

فاذا ولجت هذه الزهرة نفسها قلب الانسان ، ذهب عنها مظهر العمل ، وأصبحت رمزاً للراحة والفراغ . وهكذا فان النشاط الذى لها فى الخارج ، هو التعبير الصحيح عن الجمال والسلام الذى لها فى الباطن .

ويقول العلم فى هذا المجال أننا مخطئون ، وأن الزهرة ليست سوى الشىء الذى يبدو لنا فى الظاهر ، وأن صلة الجمال والعذوبة التى نخال أنها تحملها لنا كلها من صنع أنفسنا ، وهى لا مبرر لها ومحض خيال .

ولكن قلبنا يجيب بأننا لسنا مخطئين على الاطلاق ، وأن الزهرة فى محيط الطبيعة تحمل شهادة تزكيها بالمقدرة على القيام بعمل نافع ، بيد أنها حين تطرق باب قلوبنا تحمل خطابا للتعريف بها يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، والجمال هو مؤهلها الوحيد . فهى تأتى فى ناحية كالعبد وفى الناحية الأخرى كالطليق . فكيف نصدق تزكيتها الأولى ونكذب الثانية .

أن اتجاه الزهرة إلى تحقيق غرضها فى سلسلة التطورات التى لا انفصام لها حق لا شك فيه ، ولكنه الحق الخارجى ، أما الحق الباطن فهو .

« إن سائر الأشياء تولد من السرور الذى لا حد له »

فالزهرة إذن ليست وظيفتها الوحيدة فى عالم الطبيعة ، ولكن لها وظيفة كبيرة فى عقل الإنسان . وما هذه الوظيفة ؟ إن عملها فى الطبيعة عمل الخادم الذى يعد مظهره فى أوقات معينة ، ولكنها فى قلب الإنسان تأتى كرسول من عند الملك . وفى أسطورة (رامايانا) (١) ان سيتا حين فرق بينها و بين زوجها ، كانت

---

(١) قصة راما وسيتا معروفة فى الأساطير الهندية ، وقد اختطفت سيتا من الغابة ، وذهب بها راڤانا ملك الشياطين ، الى مدينته الذهبية ، ولكن زوجها الأمير راما يستردها بعد مخاطرات وحروب طويلة تنتهى بقتل راڤانا .

تنتحب وتنعى سوء حظها فى قصر (راڤانا) الذهبى، فقابلها رسول يحمل خاتما من حبيبها (راماشندرا) نفسه، فأقنعت صورته سيتا بحقيقة ما يحمل الرسول، وسرعان ما أحست بأنه قادم حقا من لدن حبيبها الذى لم يكن لينساها وهيأ نفسه لإنقاذها.

وما أشبه هـذا الرسول بزهرة من الحبيب الاسمى. إننا مازلنا نعيش فى منفى منعزل على الرغم مما يحيط دنيانا من المواكب والزينات التى تشبه مدينة (راڤانا) الذهبية، وتغرينا روح الفخار الدنيوى بشتى المغريات، وتدعى عرسنا. فتتقدم إلينا الزهرة رسالة من الشاطىء الآخر. وتسر فى أذننا قائلة «لقد أتيت. وأنه قد أرسلنى. أنى رسول الجميل الذى فى روحه سعادة الحب، وانه ليحيط الجزيرة المنعزلة. إنه لم يكن لينساكم، وسوف يخلصكم حتى فى هذه الآونة وسوف يقودكم نحوه، ويجعلكم له، وإن هذه الصور الخادعة لا تتركم فى العبودية إلى الأبد. فاذا كنا متيقظين لما يقول الرسول سألناه ومن أين لنا أنك حقا قادم من لديه؟ فيقول «انظروا! إننى أحمل هذا الخاتم ما أجمل حسنه وأروع فتنته!».

هو لاشك خاتمه، وأنه خاتم عرسنا. والآن فلينس كل شىء.

عداه . ان هذا الرمز الجميل الذى يحمل سمة الحب الأبدى وحده هو الذى يفعمنا بالشوق العميق ، وسندرك أن القصر الذهبى الذى نحن فيه ، ليس له علينا من سلطان ، ان خلاصنا خارج جدرانه حيث يجد حبنا ثماره وترى حياتنا طريقها .

ان ماتراه النحلة فى الطبيعة لونا وعطرا ، أو رسوما ونقطاتبين لها عن مواضع الشهد ، هو لقلب الانسان جمال وفرح لاتحده الضرورة . وانه ليحمل إليه رسالة مخطوطة بألوان من الحبر متعددة الأصباغ .

لقد حدثتك إذن بأن الطبيعة الجادة مهما يكن من شغلها فى الحياة الخارجة : فإن لها مستروحا فى نطاق القلب تروح فيه وتغدو حرة طليقة ، مجردة من أية صورة . فتتحول نار مصنعها إلى مصابيح افراح ، و يسمع ضجيج معملها كأنه الموسيقى المنغمة . إن السلاسل الحديدية التى تبدو من وراء العلة والمؤثر ثقيل وزنها خارجا ، فى عالم الطبيعة ، ولكن سرورها المحض . يظهر فى قلب الأنسان كأنه أوتار عود مصنوعة من الذهب .

وقد يبدو من العجيب فى الحقيقة ، أن يكون للطبيعة هذان المظهران فى وقت معا على مابينهما من التناقض : احـــدهما رق

والآخر حرية . ويسمع عن الصوت واللون والذوق وجهتان مختلفتان ، احداهما تنم عن الضرورة والأخرى عن الفرح . فالطبيعة فى الخارج شغل ونصب وفى الداخل سكون وأمن : عمل فى ناحية وراحة فى الناحية الأخرى . فأنت ترى عبوديتها حين تنظر إليها من الخارج فحسب ، أما فى القلب من الداخل فترى جمالا لاحد له .

يقول نبينا «من السرور تولد سائر الخلائق ، وبالسرور تعيش ونحو السرور تترقى ، والى السرور تدخل » وليس معنى هذا أنه يجهل القانون أو أن تأمله لهذا السرور اللانهائى ناشىء عن نشوة مبعثها انهماكه فى التفكير المجرد . أنه يدرك قوانين الطبيعة القاسية كل الإدراك ويقول إن النار تحرق خوفا منه (بقانونه) والشمس تشرق خوفا منه . وخوفا منه تقوم الريح والسحب والموت بأعمالها جميعاً ، ذلك حكم القانون الحديدى ، وانه لينزل العقاب بمن يرتكب أقل مخالفة ، ومع ذلك فان الشاعر يتغنى بهذه الأغنية المفرحة من السرور تولد سائر الخلائق ، و بالسرور تعيش ونحو السرور تترقى ، والى السرور تدخل .

إن الكائن الأبدى ليتجلى فى صورة الحبور، وظهوره فى الخليقة

يرجع إلى امتلائه به ، وطبيعة هذا السرور الغزير أن يحقق نفسه فى صورة القانون . والسرور المجرد من الصورة يجب أن يحقق وجوده و يترجمها إلى صور . فسرور المغنى يتجلى فى صورة الغناء ، وسرور الشاعر يتجلى فى صورة الشعر .

إن دور الانسان كخالق هو أن يخلق صوراً على الدوام . وهذه الصور تخرج من سروره الوفير . هــذا السرور الذى يسمى باسم آخر وهو الحب ، يجب أن يتحقق بطبيعته بالازدواج الثنائى . فالمغنى حين ينزل عليه الالهام يجعل من نفسه نفسين . فنفسه تصحبها نفس أخرى هى نفس السامع . وجمهور السامعين الخارج هو امتــداد لهذه النفس الأخرى . وكذلك المحب يسأل عن نفسه الثانية فيمن يحب . والسرور هو الذى يخلق هذا الانفصال ليحقق الوحدة فى تلك الموانع . إن «الامر يتام» أو السرور الدائم قد قسم نفسه الى جزءين . وروحناهى الجزء المحبوب لأنهانفسه الأخرى ونحن منفصلون ، ولكن اذا كان هذا الانفصال مطلقا كانت الشقاوة والشر مطلقين فى الحياة . فنحن اذن لانستطيع أن ننال الحق من الباطل . ولا نأمل أن نصل إلى صفاء القلب عن طريق الخطيئة ،

وكذلك يظل كل نقيض على حالته من التضاد ولا نجد وساطة لتلافى مابنا من اختلافات أبد الآبدين . فلا لغة ولا تفاهم ولا تعاطف بين القلوب ولا تعاون فى الحياة . ولكننا على النقيض من ذلك فنحن نجد انفصال الاشياء فى حالة من المرونة ، وإن فردياتها لتتغير على الدوام وتتقابل وتنغمس كل منها فى الأخرى حتى ليتحول العلم نفسه إلى النظريات العقلية ، وتفقد المادة حدودها ، وتبقى حدود الحياة شيئا غير محدود .

أجل ان روحنا الفردية قد انفصلت عن الروح الكبرى ، وليس ذلك لمخالفتها لها ، ولكن لامتلائها بالحب ، لهذا نجد أن الباطل والشقاء والشر فى الحياة ليست من الأشياء الثابتة فيها . ان روح الإنسان لتستطيع أن تهزأ بها وتقهرها جميعاً . بل ان فى مقدورها أن تحيلها الى قوة جديدة وجمال .

إن المغنى يترجم أغنيته إلى غناء ، وسروره إلى صور ، وعلى السامع أن يعيد ترجمة الغناء إلى سرور محض . فالصلة إذن كاملة بين المغنى والسامع ، والسرور اللانهائى يتجلى فى صور متعددة وهو مرتبط برباط القانون ، واننا لنتتبع حظنا حين نعود من الصور الى السرور ، ومن القانون الى الحب ونعقد عقدة المحدود ونعود بها إلى غير المحدود (اللانهائى) .

إن النفس الانسانية فى رحلة مابين القانون والحب ، ومابين النظام والحرية ، وما بين الأخلاق والروح . و يقول بودا إن ضبط النفس والحياة الأخلاقيـة ، هما قبول تام للقانون . ولـكن رباط القانون ليس نهاية فى حد ذاته : فنحن إذا أحكمناه إلى النهاية عدنا فاحتجنا الى وسيلة للسير إلى ماوراءه . وذلك أن نعود أدراجنا الى براهما ، إلى الحب اللانهائى ، الذى يتجلى فى صور القانون المحدود . وهذا مايسميه بودا (براهماڤيهارا) أى السرور بالحياة فى براهما ومن أراد أن يصل إلى هذه المنزلة فى قول بودا « يجب أن لا يغش أحدا ولا يحمل ضغنا لأحد ولا أن يفكر فى أن يؤذى أحدا عند الغضب . يجب أن يكون لديه حب لاحد له لسائر المخلوقات ، كحب الأم لابنها الوحيد ، الذى تحفظه بحياتها وينشر حبه فيما فوقه وماتحته وما حوله . بغير حدود ولا موانع . طليقا من كل أنواع القسوة والخصومة . قائما وقاعدا ، ماشـيا وراقداً . حتى اذا أدركه النعاس ، ظل عقله يشتغل فى الخـير الشامل »

إن نقصان الحب درجة من درجات الجمود ، لأن الحب هو تمام الوعى ونحن لانحب لأننا لانعرف ، أو على الأصح اننـا

لا نعرف لأننا لا نحب . فالحب هو المعنى الأخير لكل شيء يحيط بنا . وليس هو بعاطفة فحسب أنه الحق وانه السرور المتغلغل فى جذور الخليقة أجمع . وهو النور الأبيض النقى لذلك الوعى المنبعث من براهما . وهكذا إذا أردنا أن نكون فى وحدة مع «سرڤانوبية» ذلك الشعور الكلى ، الذى يتجلى فى السماء الظاهرة كما يتجلى فى أعماق قلوبنا ، وجب علينا أن نتصل بهذه القمة الواعية أى الحب « من يستطيع أن يتنفس أو يتحرك إذا لم تكن السماء ملأى بالسرور والحب » فنحن بارتفاع وعينا فى الحب ونشر رواقه حتى يشمل العالم أجمع ، نستطيع أن ننال من (براهماڤيهارا) صلتنا بذلك السرور الذى لا يحد .

إن الحب يهب نفسه فى هبات لا عـــــدد لها . ولكن هذه الهبات تفقد عظمتها الكبرى إذا كنا لا نصـــــل عن طريقها إلى ذلك الحب . الذى يهبها . ولكى نصل إلى ذلك الغرض يجب أن يكون الحب مستقراً فى قلوبنا . ومن خلا قلبه من الحب إنما يزن هبات محبه بميزان المنفعة فحسب . ولكن المنفعة شيء وقتى وجزئى . ولا تشغل سائر حياتنا . إن ما ينفعنا يمسنا فى الموضع الذى نحتاج فيه أمراً من الأمور . فاذا بلغنا غايتنا ،

كان استمرار المنفعة عبثا على كاهلنا . والحب على خلاف ذلك . فانه إذا عمر قلوبنا كان للاشارة المجردة قيمة لاتفنى ، لأنه ليس مقيداً بأية منفعة . فهو نهاية فى حد ذاته . وإنه لشىء يشمل سائر حياتنا ، لذلك لا نحس منه بنصب .

نستطيع أن نسأل ، فى أية حالة قبلنا هذه الدنيا التى هى هبة السرور الكامل . هل استطعنا أن نلقاها فى قلوبنا حيث تزدحم حاجاتنا التى نعدها ذات قيمة لاتفنى . إننا نشغل أنفسنا إلى حد جنونى باستخدام قوى الكون حتى نبلغ بها قوة فوق قوة . فنطعم ونكتسى منها ونسعى على وجوهنا لننال خيراتها . ولا تلبث أن تصير لنا كميدان للتفاخر .

ولكن هل نحن خلقنا لذلك ؟ فننشر حق امتلاكنا على هذا العالم ؟ ونجعله سلعة من سلع الأسواق وإذا كان فكرنا لاينصرف إلا إلى تسخير هذا العالم لخدمتنا فحسب ، فانه يفقد قيمته الحقيقية . فنحن نرخص ثمنه برغباتنا الدنيئة . وهكذا نقضى حياتنا إلى النهاية نتغذى به ونفقد حقيقته . كالطفل الشره الذى يمزق أوراق كتاب نفيس ويحاول أن يزدردها .

فى البلاد التى يسود فيها أكل لحوم البشر ، ينظر الإنسان

إلى أخيه كأنه جزء من طعامه . ولا حية المدنية فى مثل هذه البلاد . لأن الإنسان فيها يفقد قيمته العليا و يصبح شيئاً عاديا ولكن فى الحياة صنف آخر من أكلة لحوم البشر . ربما لم يبلغوا هذا الحد من الفظاعة ؛ ولكنهم ليسوا أقل فظاظة من هؤلاء . و إننا لا نذهب بعيداً إذا أردنا أن نصل إليهم . ففى بلاد ترتفع فى سلم المدنية ، نجد أن الإنسان فى بعض الأحيان ينظر اليه كأنه جسم لا أكثر ولا أقل ، يباع ويشترى فى السوق بثمن لحمه فحسب . وتقدر قيمته بمقدار نفعه ، فيحول الى آلة صماء ؛ ويتجر به رب المال لينال المزيد منه وهكذا تتولد شهوتنا و ينبعث جشعنا وحبنا للراحة ، من إرخاص قدر الإنسان إلى أحط القيم . وهـذا هو خداع النفس بأوسع معانيه . ان رغباتنا تعمينا عن الحق الذى يحمله الانسان . وتلك أكبر خطيئة نجنيها بأيدينا على روحنا . فتميت وعينا ، ثم نتدرج بنا الى الانتحار . انها التنبت القرح القبيحة فى وجه المدنية . وتملى مواضع الفساد فيها ؛ وترفع شأن الحقد والخصومة . وتوطد أنظمة السجون القاسية . وتحيى طرق الانتفاع بالعناصر الأجنبية الى حد الدأب على ايذائهم وحرمانهم من نظام الحكم الذاتى ووسائل الدفاع عن النفس .

لاشك أن الانسان ينتفع بالانسان ، لأن جسمه آلةهائلة وعقله عجيب فى مزاياه . ولكنه روح كذلك وهذه الروح لاتعرف حقيقتها إلا بالحب ونحن إذا ذهبنا نزن الانسان بسعر السوق الذى يقدره بمقدار ما يؤديه من العمل . فاننالا نعرفه المعرفة الصحيحة ، ويسهل علينا بهذه المعرفة المحدودة أن نكون غير عادلين نحوه . ونحس بالفوز حين نستطيع بعامل المنفعة أن ننال منه أكثر مما نعطيه . لكننا إذا عرفناه كروح عرفنا أنه مثل روحنا . وسرعان ما نشعر بأن القسوة إليه قسوة إلى أنفسنا . وتحقير شأنه يسترق من إنسانيتنا . وفى سعينا لاستخدامه لمنفعتنا الشخصية ، إنما نجنى مالا أو راحة . وندفع الثمن على حساب الحق .

كنت ذات يوم أسير فى قارب بنهر الجانج ، وكانت أمسية من أمسيات الخريف الجميلة . والشمس بعيد الغروب . وكان السكون يشمل آفاق السماء ويجللها بسلام وجمال صامتين . وبدت صفحة الماء الممتدة الواسعة ، ساجية كوجه المرآة ، تنعكس عليها ظلال الغروب المتوهجة . والشاطىء الرملى الموحش يمتد أميالا إلى أميال . كأنما هو جسد تمساح عظيم تخلف من عهد الطوفان ، وقد تألقت قشرته بألوان براقة لامعة ، وبينما يسير

قاربنا فى صمت على شاطىء النهر السريع الجريان الذى تكتنفه مستعمرة من أوكار الطيور . وثبت بغتة سمكة كبيرة الحجم على سطح الماء ثم اختفت . وقد عكست على جسمها المحتجب ألوان السماء جميعا . وقربت إلى فى لحظة من الزمن ذلك المنظر المتعدد الألوان ، الذى تختفى وراءه دنيا مليئة بمسرات الحياة . لقد وثبت من أعماق مسكنها الخفى فى حركة راقصة جميلة . واضافت موسيقاها ، إلى الموسيقى الصامتة المنبعثة من اعقاب اليوم المنصرم ، فشعرت كأنى أتلقى بلغتها تحية أخوية من عالم آخر . وقد مست قلبى بوميض من السرور . وعلى حين غرة صاح الرجل الجالس على سكان السفينة فى لهجة تنم عن الأسف وقال يالها من سمكة كبيرة ! لقد تمثل ناظره صورة السمكة وقد أمسك بها وهيئت أمامه للعشاء . انه لاينظر إلى السمكة إلا من خلال رغباته الذاتية ، لذلك فقد حقيقة وجودها ولكن الأنسان لم يخلق حيوانا فحسب . ان له صورة روحية يطمح اليها وهى صورة الحق بأكمل معانيه . ومنه يستمد سروره الأسمى إذأنه يميط له عن أبعد أغوار الوحدة التى تصل بينه وبين مايحيط به ، وليس سوى رغباتنا الشخصية التى تحد مدى تحقيق المثل العليا فى نفوسنا وتقف حائلا بيننا وبين امتداد وعينا ، وتكثر من خطيئتنا التى

هى الحائل بيننا وبين الله . وتقر الشقاق وطغيان الاستثناء والحرمان فالخطيئة ليست عملا فحسب ، ولكنها مظهر من المظاهر التى تصور الحياة فى صورة محدودة . ونرى أن أنفسنا هى الحق النهائى واننا أسنا شيئا واحداً فى جوهره ولكن كل منا يعيش لوجوده الفرد

لذلك فانى أعود فأكرر اننا لانستطيع أن نأخذ صورة صادقة عن الانسان الا إذا كنا نحبه . وان الحكم على المدنية ومكافآتها لاتكون بمقدار ماتحرز من قوة ، بل بمقدار ماتشتمل عليه وما تعبر عنه بقوانينها وأنظمتها ، من الحب الانسانية . ان السؤال الأول والأخير الذى نطالب بالاجابة عنه هو : كيف ندرك الانسان كروح لا كآلة صماء ؟ وحينما تسقط مدنية قديمة إلى درك الانحطاط وتزول من الوجود ، فان ذلك لا يكون إلا بأسباب ترجع إلى جمود القلب ، وارخاص قدر الانسان . وحينما بدأت حكومة أو جماعة قوية من بنى الانسان تنظر الى الناس كأنهم آلة تسخر لقوتهم ، وتسوق الأمم الضعيفة عنها إلى العبودية ، وتحاول أن تقودهم الى الحضيض بشتى الوسائل ، فان الانسان يتشبث بدعائم عظمته ، وحبه للحرية والعدالة . أن المدنية لاتعيش على أكل لحوم البشر أيا كان النوع الذى يعزى اليه . فان الانسان

لايكون انسانا حقا الا اذا تغذى بغذاء الحب والعدالة لا بشيء آخر .

وما يقال عن الانسان يقال عن الكون ، فنحن إذا نظرنا إلى العالم من خلال رغباتنا نصغره ونضيق رقعته ولا نستطيع أن ندرك حقيقته الكاملة .

ومن الواضح الذى لاشك فيــه أن العالم يخدمنا ويؤدى حاجاتنا ، ولكن علاقتنا به لا تنتهى عند هذا الحد . فنحن نرتبط به علاقات أعمق وأصح من صلات الضرورة . إن روحنا تنجذب اليه . وحبنا للحياة هو فى الحقيقة يعبر عن رغبتنا فى أن نواصل علاقتنا بهذا العالم العظيم . وهذه العلاقة هى علاقة الحب . وانا لنحس بالسعادة لوجودنا فى هذا العالم . واننا لنرتبطنا به خيوط لاعدد لها تمتد من هذه الأرض الى نجوم السماء . ويحاول الانسان بغباوة منه أن يبرهن على سموه بما يتصور من الانفصال الكلى عما يسميه عالم المادة ، لجهله به . ويعده عدوه الألد . ولكنه كلما ارتقى فى العلم وجـد أنه من الصعب عليه هـذا الانفصال . وسرعان ماتختفى عنه تلك الحدود التى تصورها ووضعها لنفسه ، الواحدة تلو الأخرى . وكلما فقدنا سمات مميزاتنا الكاملة التى تهب

انسانيتنا حق الانفصال عما يحيط بها ، صدمتنا الصدمة التي تفضي إلى إذلالنا . إلا أننا يجب أن نخضع لذلك .

وإذا وضعنا كبرياءنا في عرض الطريق الذي تتحقق فيه نفسيتنا ، لنخلق اختلافا وانفصالا ، فانها ولا شك ستنهار تحت عجلات الحق ، عاجلا أو آجلا ، وتلزم الرغام . كلا . إننا لا نرزح تحت عبء عظمة جبارة ، لا معنى لها في انفصالها المنفرد . ولعل مما يزري بقدرنا إلى أبعد حد أن نعيش في عالم أقل منا كثيرا من الوجهة الروحية . ومن القبيح بنا بل ومما يحط من قدرنا أن يحف بنا ويخدمنا عبيد ارقاء آناء الليل وأطراف النهار . منذ ولادتنا إلى اللحظة التي نموت فيها . ان الأمر على النقيض ، فهذا العالم رفيقنا إن لم نكن نحن وهو شيء واحد .

لقد عرفنا بتقدمنا العلمي وحدة العالم ، وأيقنا اننا وهو شيء واحد . وأصبحت هذه الفكرة واضحة لعقولنا . وحين يصير إدراك كمال هذه الوحدة أكثر من مجرد شيء فكري ، وينبلج سائر كياننا عن وعي يشع نوره على كل شيء ، يتحول إلى سرور مبهج ، وحب شامل . ان روحنا تجد نفسها الكبرى في العالم أجمع . وتمتلىء يقينا بأنها خالدة . ولكنها تموت مائة مرة في سجن النفس ، إذ

أن الانفصال يؤدى إلى الموت ولا يقودنا للخلود . ولكن روحنا لن تموت حيث تكون هى والعالم شيئاً واحداً . لأن فى ذلك حقيقتها ، وحبورها . وإذا أحس الانسان فى روحه توقيع نغم الحياة الروحية التى تشمل العالم فانه يتحرر ، ومن ثم يتقدم نحو حفل الزفاف الخفى الذى يقوم بين عروس الحياة الجميلة المحجبة بقناع المحدود المتعدد الألوان ، وبين (البارامانمام) العريس فى ثيابه الناصعة التى لا تشوبها ذرة من قتار ، فيعرف أنه شريك فى هذا المهرجان الحى ، وأنه ضيف الشرف فى حفل الخلود ويستطيع أن يدرك معنى قول الشاعر النبى الذى يتغنى بقوله « إن الحياة تولد فى الحب وتعيش فى الحب وتسير نحو الحب وتدخل فى الحب » .

فى الحب تظهر متناقضات الوجود جميعها ثم تختفى ، وفى الحب وحده تتجلى الوحدة والازدواج بغير اختلاف . فالحب واحد وهو اثنان فى وقت واحد .

والحب وحده حركة وراحة فى وقت معا . وما زال قلبنا يتحول ويتغير فى قلقه حتى يجد الحب فيظفر براحته ، ولكن هذه الراحة نفسها تعد صورة قوية من صور النشاط . يجتمع فيها الهدوء التام والنشاط الذى لا ينقطع فى نقطة واحدة وهى الحب .

وفى الحب تجتمع الخسارة والربح ، وفى ميزانيته يكتب حساب الدين والقرض فى عمود واحد ، وتضاف الهبات إلى الأرباح . وفى حفل الخليقة الرائع ، ذلك المهرجان المعظم القائم على تضحية النفس لله . يهب المحب نفسه ليستعيدها فى الحب ، ولا شك أن الحب هو الذى يربط بين ترك الشىء والحصول عليه .

فى أحد طرفى الحب ماهو شخصى ، وفى الطرف الآخر ما ليس بشخصى ، وفى ناحية منه نجد التحقيق الايجابى فى قولك . هأنذا . وفى الناحية الأخرى الانسكار الشديد فى قولك ، لست أنا ذاك ، كيف يكون معنى الحب بغير هذه الذاتية ثم كيف يكون الحب بهذه الذاتية .

وليس الأسر والتحرر بخصمين فى عالم الحب . لأن الحب حر إلى أقصى حد ، ومقيد إلى أقصى حد . وإذا أراد الله أن يكون مطلق الحرية لما وجدت الخليقة . فان الكائن اللانهائى يجمع فى نفسه أسرار النهاية . وفيما نسميه الحب ترى المحدود وغير المحدود شيئاً واحداً .

كذلك إذا تحدثنا عن القيم النسبية للحرية وغير الحرية ، فان قولنا لايعدو التلاعب بالألفاظ . نحن لا نريد الحرية فحسب

وإنما نريد العبودية كذلك ووظيفة الحب السامية ترحب بسائر الحدود ثم تتخطاها. وليس في الوجود شيء مستقل كالحب. وانى لنا أن نجد استقلالا كذلك الاستقلال؟

إن العبودية لتتألق في عالم الحب كالحرية على حد سواء.

وقد أشارت ديانة (الفاشناف) في شجاعة إلى أن الله قيد نفسه بالانسان، وفي ذلك أكبر مجد للإنسان. وفي سياق اللحن العجيب المنبعث من المحدود يجعل نفسه في كل خطوة من خطواته وكذلك نجد أنه يهب حبه في الموسيقى في أتم نغمات الجمال. والجمال هو وسيلته لاستمالة قلوبنا. وليس له معنى غير ذلك. وأنه ليشير إلينا في كل موضع بأن مظاهر القوة ليست معنى الخليقة الأخير. فما دام في الوجود شية من لون أو إشارة من نغم، أو قالب لصورة فان صوت الحب يسمع لا محالة. وإذا كان الجوع يجبرنا على أن ننزل تحت مشيئته. فان الجوع ليس بالأمر الأخير في حياة الإنسان. وقد رفض الخضوع لأوامره أناس بحزم وعزم ليعلنوا أن الروح الإنسانية لا تخضع لضغط الحاجة وتهديد الألم.

ونحن في الحقيقة إذا شئنا أن نحيا حياة الإنسان، يجب أن

نقاوم مطالبه فى كل يوم . من أصغرنا إلى أكبرنا شأنا فى الحياة .
إلا أن فى الحياة من ناحية أخرى جمالا لايمس حريتنا بأمانه . ولا يرفع حتى أصبعه الصغير ليشير لنا إلى سلطانه . وانا لنستطيع أن نجهله كل الجهل ولا ينالنا عقاب . لأنه نداء وليس بأمر . وانه ليبحث عن الحب فى أعماق نفوسنا .

والحب لاينال بالإلزام . وليس الالزام فى الحقيقة هو الدعوة الأخيرة للإنسان . ولكن السرور . السرور فى كل ناحية من نواحى الحياة . يتجلى لنا فى اخضرار الأرض بالحشائش . وفى زرقة السماء الهادئة . وفى جيشان الربيع وغزارته ، فى تقشف الشتاء الأشيب ، فى اللحم الحى الذى يحيا به كياننا الجسمى ، وفى الصورة الإنسانية ، وما تحمل من كرامة واستقامة ، فى تحصيل العلم ، فى محاربة الشر ، فى الموت فى سبيل مالا نجنى لأنفسنا شيئاً من ثماره إن السرور كائن فى كل مكان . وإذا كان شيئاً خرافيا . أو أمراً لا تدعو إليه الحاجة ، فأنه يخالف أشد ما تدعو اليه أحكام الضرورة اللازبة فى غالب الأحيان ، ولقد وجد ليرينا أن قيود القانون لاتفسر إلا بالحب وانهما كالجسم والروح . والسرور هو إحقاق الحقيقة المثلى فى الوحدة التى تجمع بين روحنا و بين العالم ، و بين روح العالم والحبيب الأسمى .

تحقق الحياة فى العمل

ان الذين يعرفون أن السرور يفسر نفسه بالقانون هم الذين يعرفون كيف يسيرون إلى ما وراء القانون . وليس معنى هــذا أن قيود القانون تزول عنهم كلية ، ولـكنها تصبح لهم بمثـابة الصورة المجسمة للحريه . والروح المتحررة تبتهج بقبول القيود ، ولا تفـكر فى التخلص من شىء منها . لأنها تشعر فيها بنشــاط لا حد له يتغلغل سروره فى كيان الخليقة .

ومن الحقــائق المقررة . أنه حيث تزول القيود . و يظهر جنون الاباحة ، تتلاشى حرية الروح . ويحل بهـــا السوء ، وتنفصل عن اللانهائى ثم تقع الخطيئة .

وحيث تنفلت الروح من وثاق القانون بداعى الهوى . تصيح كالطفل الذى يحرم من أحضان أمه . « لا تضربنى » ثم تتوسل « أن امسكنى برباط قانونك ، أمسكنى باطنا وظاهراً . أمسكنى دعنى أعيش فى قبضة قانونك . وأظل مقيدة بسرورك . احمنى بقبضتك الشديدة من شهوة الخطيئة الفاتكة » .

وكما يرى بعض الناس أن القانون مناقض للسرور ، فيخطئون

نشوة الحبور ، فان كثيرين فى بلادنا يتصورون أن العمل مناقض للحرية . ويخالون انه ما دام مجاله عالم المادة فانه يعوق حرية الروح . بيد أننا يجب أن نذكر أن السرور كما يفسر نفسه بالقانون فان الروح تجد حريتها فى العمل . ذلك أن السرور لا يستطيع أن يعبر عن نفسه بنفسه فحسب ، فيبحث عن القانون الذى يخرجه الى حيز الوجود . وكذلك الروح لا تستطيع أن تجد حريتها فى نفسها فتحتاج الى العمل الخارجى .

ان روح الانسان تحرر نفسها من نفسها بعملها على الدوام . فاذا لم تكن كذلك لم تؤد باختيارها عملا على الاطلاق .

وكلما اشتغل الانسان وأخرج الى حيز الفعل ما هو كامن فى نفسه ، دنا نحو الشوط الذى عليه أن يقطعه فى الحياة . وبهذه الطريقة التى تحقق النفس فى العمل ، يحدد الانسان ذاتيته ، ويرى نفسه بوضوح فى مظهر يتجدد فى صميم نواحى نشاطه المختلفة ، فى العمل الرسمى ، وفى المجتمع ، وهو بهذا المظهر يساعد على تحقيق الحرية .

ان الحرية لا تعيش فى الظلام ، ولا فى الغموض ، وليس ثمة أسر فى الوجود مثل ذلك الغموض . ان البذرة تعمل جهدها

لتفر من هذا الغموض الخفى وتظهر نباتا . والبرعم يعمل ليبدو زهرا . وكذلك تبحث الأفكار المستقرة فى عقولنا على الدوام لتتحرر من ذلك الغلاف الغامض ، وتتحين الفرص التى تهيىء لها الظهور فى صورة خارجية .

وبالوسيلة عينها نجد أن روحنا — كى تخلص من ضباب الابهام ، وتظهر فى عالم الوجود — تخلق لنفسها ميادين جديدة للعمل ، وتشتغل بجد لتجد أنواعا جديدة من الأعمال ، حتى ولو لم تكن تحتاجها فى أغراضها الأرضية ، ولماذا كان هذا ؟ هذا لأنها تحس حاجتها الى الحرية ، تريد أن ترى نفسها وتحققها .

حين يستأصل الانسان الغابة الموبوءة ، ويزرع لنفسه حديقة ، فان الجمال الذى يبعثه من قبحها هو جمال روحه . واذا لم يعطها هو هذا الجمال الخارجى ، يتعذر عليه أن يحررها من الداخل . وهكذا يشتغل الانسان على الدوام بتحرير قواه بالعمل . بل وجماله وصلاحه وروحه ذاتها .

وكلما نجح فى هذا المضمار عظمت نفسه فى نظره ، واتسع ميدان معرفته بها .

يقال فى كتاب الابنشاد «فى مضمار النشاط العملى وحده ، تود لو تعيش مائة عام » وهـذا قول من كانوا يتذوقون سرور الروح بأوسـع معانيه . أولئك الذين أدركوا أن الروح لم تتحدث قط ببهجة الأسى والأسف ، عن اشجان الحياة . أو أسر العمل . ولم يكونوا فى الحياة . كالزهرة التى تحملها سويقة ضعيفة فتسقط الى الأرض قبل أن تؤتى ثمارها ولـكنهم كانوا يقفون الى جانب الحياة بكل قواهم ويقولون « اننا لا نذهب ابدا حتى تنضج الفاكهة » ويودون بسرورهم أن يعبروا عن انفسهم بكل قوة فى حياتهم وفى أعمالهم . فلا يفزعهم الألم والحزن ، ولا ينحنون الى الرغام بثقل قلوبهم . بل يتقدمون فى الحياة بتلك الرأس الشماء التى يرفعها البطل المظفر . فيرون أنفسهم ويظهرونها فى حالتى السرور والحزن ، فى ضياء الروح العظيمة وأن سرور روحهم ليتمشى جنباً إلى جنب مع بهجة ذلك النشاط الدائم الذى يشمل البناء والهدم فى سائر الـكون . ويمتزج سرور حياتهم بسرور مشرق الشمس ، والهواء الطلق . فيجتمع من كل ذلك وحدة لها حكمها داخل النفس وخارجها . أولئك الذين يقولون «فى مضمار النشاط وحده تود لو تعيش مائة عام» أن هذا السرور بالحياة ، وذلك الابتهاج بالعمل هو حقيقة مطلقة

فى الانسان . ولا عبرة بأن نقول انه محض خيال من خيالاتنا . فاذا لم نتبذعنا ذلك ، لن نلج الباب الذى يؤدى الى تحقيق النفس . ولن يتيسر لنا أن نحقق اللانهاية فى نفوسنا بعيداً عن دنيا العمل .

وليس من الحق فى شىء أن نقول إن الانسان انما يعمل مسوقا بحكم الضرورة الملحة . فأنه إذا كان هنالك اضطرار . فأن هنالك سرورا كذلك . فالعمل تحفز اليه الحاجة من ناحية ، ويتبع طريقه الطبيعى من الناحية الأخرى .

لذلك نجد أن المدينة الانسانية كلما ارتقت زادت معها تبعات الانسان . وتزايد العمل الذى يخلقه لنفسه طائعاً مختاراً . وقد يظن الانسان أن الطبيعة قد أعطته من الأعمال مايكفيه حتى الممات . لأنها تسوقه الى العمل بسوط الجوع والعطش . ولكن الأمر على خلاف ذلك . فأن الإنسان لايكتفى بهذا . وأنه لايستطيع أن يظل فى حياته قنوعاً بأن يقوم بالعمل الذى تقرره له الطبيعة كالطيور والوحوش . وأنه ليرى ان يتخطاها جميعاً . حتى فى ميدان النشاط العملى . وليس بين الخلائق عامة مايحتاج الى العمل كالانسان . فهو مدفوع إلى أن يهيء لنفسه ميداناً واسعاً فى المجتمع . لذلك لاينفك الى الأبد يبنى ويهدم ، ويضع

القوانين وتمحوها . ويخلق الأكداس المكدسة من المواد .
ويفكر ويبحث بغير انقطاع . متحملا شتى المتاعب . وأنه
ليناضل فى هذا الميدان أشد نضال . ويجتنى لنفسه حياة جديدة
على الدوام . جاعلا له من الموت مجداً . وإنه ليحتمل أعباء
التعب المتجدد طائعاً مختاراً . ولا يفكر فى تجنب النصب وقد
تحقق أنه لايعيش فى سجن مطبق فى قفص مما يحيط به مباشرة
وأنه أكبر من حاضره . وعرف أن وقوفه جامداً فى مكان واحد
لايريم عنه قد يكون فيه راحة له . ولكن وقوف الحياة لاشك
يفسد الوظيفة الحقيقية التى خلق لها ، والغرض الصحيح
من وجوده

أن هذا الخراب الكبير « ماهانى فينا شئ » أمر ينوء به .
وعلى ذلك فأنه يعمل ويتحمل المتاعب لينال الحظوة فى تخطى
حاضره ، حتى يكون مالم يكنه بعد . وفى هذا النصب مجد الانسان
ولمعرفته ذلك لايفكر فى أن يضع حداً لميدان عمله . بل أنه ليشغل
نفسه دائماً بتوسيع نطاقه . وقد يذهب بعيداً فى بعض الأحيان
حتى أن عمله ليفقد معناه . وانه ليخلق باندفاعه هنا وهنالك
أعاصير مخيفة تدور عواصفها فى دوائر مختلفة . تلك أعاصير

الاهتمام بالنفس والاعجاب بالقوة . إلا أن التيار مادام لم يفقد قوته فلا خوف من ذلك . لأن عوائق نشاطه والعوامل الميتة فيها تتبدد . وتصحح القوة أخطاءها . و إنما ينال اعداء الروح سلطانهم عليها . حيث تنام وتركد . فتصبح تلك العراقيل عوائق شديدة الأثر ، لايمكن مقاومتها ، كذلك وعظنا معلمونا : بأننا يجب أن نعيش لنعمل ، ويجب أن نعمل لنعيش . وان الحياة والنشاط العملي لايفترقان .

ومما تتسم به الحيـاة فى صميمها أنها لاتـكمل فى نطاقها الداخلى فحسب . بل يجب أن تظهر فى العالم الخارجى . وتتأكد حقيقتها دواليك بين الداخل والخارج . ولـكى يعيش الجسـد يجب أن يحافظ على علاقاته المختلفة بالنور والهواء الخارج . ولا يكفيه أن ينال قوة الحياة فحسب بل يجب أن يظهرها و يؤكدها . تصور كيف يسخر الجسم الى أقصى حد بمختلف أنواع نشاطه الداخلى . فدقات قلبه يجب أن لاينقطع عملها . وهذا ليس كافيا . فان الجسم لايهدأ لحظة واحدة فى حياته الخارجية . فهى تقوده إلى رقص متواصل بين العمل واللعب . ولن يستطيع أن يقف عند محيط عمله الداخلى . فأنه يجد طريقه الى السرور ، فى نزهاته الخـارجية .

وكذلك الروح . فأنها لا تستطيع أن تعيش على احساساتها وتصوراتها الداخلية . بل هي على الدوام في حاجة الى صور خارجية لا لكي تشبع بها وعيها الداخلي فحسب بل لتلتمس نفسها في نطاق العمل . لا لكي تنال فحسب ، ولكن لتعطي كذلك .

والحقيقة الصحيحة ، هي أننا لا نستطيع أن نعيش إذا جزأنا الحق في ذات نفسه وجعلناه جزأين ، ويجب أن نعيش معه في الداخل كما نعيش معه في الخارج . وفي أي الحالين أنكرناه غششنا أنفسنا وتعرضنا للخسار . ان براهما لم يتركني ، واذن فلن أترك براهما ، وإذا قلنا اننا نريد أن ندركه داخل أنفسنا فحسب ونجعله بمعزل عن حياتنا الخارجيـــة ، وأننا نريد أن نتمتع به بالحب الكائن في قلوبنا . ولا نعبده بالاعمال الخارجة عنها ، أو قلنا بالنقيض وأثقلنا كاهلنا بناحية واحدة من الناحيتين في بحثنا الطويل عن كنه حياتنا ، فأننا في الحالتين على السواء نترنح للسقوط إلى الدرك .

في القارة الأوربية الكبرى لا تعنى الروح ، الا بناحية الظهور في الخارج ، فميدانها هو الميدان الخارجي . الذي تتدرب فيه على شحذ قوتها . وانها لتتعلق بالعالم الظاهر . وتود لو تعتزل ميدان الوعي البـــاطن . بل انه ليصعب عليها أن تؤمن به . وهو مع ذلك

ميدان الكمال . وانها لتذهب فى ذلك الى حد بعيد . حتى ليخال أن تمام الكمال لا وجود له فيها على الاطلاق .

فمذاهبها العلمية تتحدث على الدوام بتطور العالم الذى لاينتهى أبد الآبدين ومذاهبها الروحية تتحدث عن تطور الاله نفسه . وإنهم لا يسلمون بأنه كائن فحسب ، بل يريدون أن يقولوا إنه فى سبيل التكوين .

إنهم لم يستطيعوا أن يدركوا أن اللانهائى ، إذا كان أكبر من أى حد معين فانه كذلك تام . وإن راحما هو التطور كأنه الكمال . وهو روح باطنه من ناحية وخلق ظاهر من ناحية أخرى . يجتمع له الحالان فى وقت معا . كالأغنية والتلحين . وانهم فى هذا كمن يجهل وعى المغنى ويعترف بجودة الغناء . وينكر الأغنية ومما لاشك فيه ، أن معرفتنا مقصورة على الغناء ولم يكن لنا فى يوم ما معرفة بالأغنية كشىء عام . ولكن ألم نكن نعرف على الدوام أن الغناء الكامل كائن فى نفس مغنيه ؟

وقد أصبحنا نحس نشوة القوة فى أبناء الغرب لدأبهم فى سبيل العمل . وسعيهم وراء الفائدة . وإنه ليبدو أن هؤلاء القوم قد اعتزموا أن يغتنموا كل شىء بعامل القوة ، ويجعلوه فى حوزتهم

ويصرون على أن يكونوا هم العاملين الذين لاينتهى من عملهم . ولا يسمحون حتى للموت بأن يحتل مكانه فى مجرى الأمور . ويجهلون جمال الكمال .

أما الخطر فى بلادنا فيجرى من نقيض ذلك . فنحن نتعلق بالعالم الباطن ونود لو ننبذ باحتقار ميدان القوة والتوسع . فنريد أن ندرك براهما فى صورته الكاملة بالتأمل فحسب . ولا نفكر فى أن نراه فى مظهره الخارجى فى معترك الحياة . لذلك نجد باحثينا على الدوام منتشين بخمر الروح . وما وراءها من الانحدار . وأن عقيدتهم لاتقبل قيد القانون بأى حال . وأن خيالهم ليحلق بغير حدود . ويرون أن من الزراية بهم أن يقدموا أى دليل منطقى على ما يعملون . وهم يحاولون عبثا أن يتصلوا ببراهما بعيداً عن مخلوقاته وتحاول قلوبهم أن تندمج فيه بتوسلاتها وهى مدلهة باحساسات عواطفها المنتشية . ولم يتركوا لنفوسهم مجالا لكى تزن ما تخسر من القوة ومن الأخلاق التى يحرزها الإنسان ، بجهلهم قيود القانون . ودواعى العمل فى الحياة الخارجية .

ولكن الروحية الصحيحة كما كانت معروفة فى حكمتنا المقدسة ، تتوازن بقوة ارتباط الداخل بالخارج . إن للحق قانونه

وله سروره كذلك . وقد أنشد في ناحية من نواحيه ان من خوفه تحرق النار ، وفي الناحية الأخرى من السرور خلقت سائر الأشياء ان الحرية لاتنال الا بالخضوع للقانون . لأن براهما مرتبط بحقيقته من جانب وحر في سروره من الجانب الآخر شأننا نحن ، فأننا لاننال سرور الحرية إلا بالخضوع التام لقيود الحق . وكيف يكون ذلك ؟ يكون ذلك كما يكون الخيط المشدود الى القيثار . فأنه اذا احكم شد القيثار حتى لايبقى أى ارتخاء ، في هذه الحالة وحدها ، تظهر الموسيقى ، ويجد الخيط وهو يرتفع بأنغامه . في كل وتر من أوتاره ، حريته الصحيحة . وذلك لأنه مقيد بتلك القواعد المحكمة السريعة من ناحية . ولكي يستطيع أن يجد مجاله من الحرية في الموسيقى من ناحية أخرى . أما إذا كان الخيط غير محكم فأنه لايعدو أن يكون وثاقاً . ولن يكون حل وثاقه الطريق الذى يؤدى الى الحرية التى يستطيع أن ينالها بأكمل معانيها اذا أحكم ذلك الوثاق إلى أن يصل إلى مكانه الصحيح .

إن أوتار الثلث والقرار ، في واجباتنا لاتعدو أن تكون قيوداً اننا مالم نحكم شدها بما يقتضيه قانون الحق . وليس في مقدورنا أن ندعوها باسم الحرية إذا فقدت وتلاشت في فراغ الجمود .

لذلك أريد أن أقول أن السعي الصحيح للوصول الى حقيقة دهرما . ليس في اهمال العمل ، ولكن فيما نبذله من جهد في شد أوتاره شيئاً فشيئاً حتى تصل الى الوحدة الخالدة . ويتبين النص الذى يدل على هذا الجهاد في قوله « مهما تكن الأعمال التي تعملها ، فاجعلها ابراهما » ومعنى ذلك أن الروح تهب نفسها لبراهما في كل أعمالها . وهذه الهبة هي أغنية الروح . وفيها حريتها . وينشر السرور سلطانه حين يصير العمل طريقنا نحو براهما . وتنصرف الروح عن أهوائها ، ويتحقق فيها بذل النفس . فينشأ الكمال وتكون الحرية ، وتحل مملكة الله في هذا العالم

من ذلك المنزوى في ركنه ، يريد أن يسخر بتعبير الإنسانية العظيم عن النفس بالعمل . ذلك التعبير الذى لا ينقطع عن النفس ؟ من ذلك الذى يخال أن اتحاد الله والانسان يتم بعتمة منفصلة من تصوراته وهو بمعزل عن تمثال البرج السماوى الذى يمثل عظمة الإنسانية ، التي يعمل لها سائر بني الانسان تحت وهج الشمس ، وفي العاصفة الهوجاء . لينهضوا مدى الحياة ؟ من ذلك الذى يظن أن هذه الصلة المنفصلة هي اسمى صور الدين ؟ أيها الثمل بخمر النفس ألم تسمع بتقدم الروح يعترض ميادين الانسانية الواسعة

برعود تقدمها فى مركبتها التى تسير قدما نحو الرقى ، وتتخطى العوائق التى تقف دونها وهى تنشر لواءها على الكون . أن الجبال لتشقق وتفسح الطريق للوائها الذى يخفق بالظفر فى اجواز السماء . ان العوائق والعقبات المادية لتتلاشى لمقدمها ، كما يتلاشى الضباب عند مقدم الشمس . وان الألم والمرض والاضطراب لتختفى قبل ظهورها عند كل خطوة من خطواتها . وتدفع العقبات الكأداء من طريقها فتندفع عنا طرق الظلام ، ويتفتح طريق الأرض الموعودة . بالثروة والصحة والشعر والفن والعلم . ويأخذ الحق طريقه للظهور شيئاً فشيئا . أتريد أن تقول وأنت فى سباتك العميق أن مركبة الانسانية ، التى تهز الأرض بتقدمها فى أنحاء التاريخ الواسعة الأرجاء ليس لها من يقودها إلى غايتها ؟ من ذلك الذى يأبى أن يلبى الدعاء الذى يناديه للاندماج فى مضمار هذا التقدم المظفر .من هذا الذى يصل به الجنون الى الحد الذى يجعله يهرب من حشد الفرح والسرور المبهج ، ويبحث عنه فى غفلة السكون ؟ من ذلك المتحجر فى الباطل الذى يجسر على أن يدعو كل ذلك باطلا ؟ ذلك العالم الحافل وهذه المدنية التى تنشر لواءها الانسانى . وذلك المجهود الأبدى الذى يبذله الانســان فى أغوار الألم ، وفى قمم السرور ، وسط العقبات العديدة التى تعترضه فى الباطن وفى

الظاهر ليظفر بنجاح لقوته . أنستطيع أن تقول إن الذى يغفل عن كل هذا التقدم ، ويظنه وهما من الأوهام يعتقد فى الله ، وان الله هو الحق ؟ من ذلك الذى يظن أنه يتصل بالله بالفرار من الدنيا ، متى وأين ينتظر أن يلتقى به ؟ ما أبعد الأفق الذى يريد أن يطير اليه . كلا إن الجبان الذى يريد أن يطير لا يستطيع أن يراه على الاطلاق .
يجب أن تكون لدينا الشجاعة الكافية لكى نقول اننا نصل اليه هنا فى هذا المكان عينه . فى هذه اللحظة . يجب أن نكون قادرين على أن نؤكد لأنفسنا أننا كما نحققها بالعمل . فأننا كذلك فى نفوسنا نحقق الله ، نفس النفوس . فاذا ما أزلنا من طريقنا سائر العوائق ، بما نبذل من جهود ، ومحونا كل مايعترض نشاطنا من الفساد والخصومة كان لنا أن نقول « إن سرورى فى عملى وفيه سرور سرورى » . وخير من عرف براهما كما جاء فى الابنشاد هو الذى ينطبق عليه قولنا « أن الذى يتجلى سروره فى براهما ، وتصرفه فى براهما ، هو الرجل الذى يعمل » والسرور بغير العمل له لا يعد سروراً على الاطلاق . وكذلك العمل بغير الجد لا يعد عملا . فالجد مفتاح السرور . ومن كان سروره فى براهما كيف يقبل أن يعيش فى جمود ؟ أليس من الواجب عليه أن يمثل بجده وعمله من يتجلى فيه سرور براهما . لذلك فأن من يعرف براهما ، ويجد

سروره فى براهما ، يجب أن يكون سائر نشاطه فى براهما : أكله وشربه وكسب عيشه ومنفعتة ، وكما أن سرور الشاعر بشعره والفنان بفنه والشجاع بشجاعته والحكيم بحكمته ، يعبر عنه فى مختلف نشاطهم ، فكذلك سرور من يعرف براهما فى سائر اعماله اليومية صغيرها وكبيرها فى الحق ، فى الجمال ، فى النظام ، وفى المنفعة ، يعبر عن نفسه فى اللانهاية.

وعلى هذا النحو يعبر براهما عن سروره ، وبنشاطه المتعدد الجوانب ، الذى يشع فى سائر النواحى ويؤدى الحاجات الفطرية التى تتطلبها خلائقه المختلفة ، وهذه الحاجة الفطرية هى ،هو بذاته وكذلك يهب نفسه فى شتى الطرق وشتى الأوضاع . انه يعمل وإذا لم يعمل فكيف كان يستطيع أن يهب نفسه . وان سروره ليكرس نفسه فى خليقته .

فى هذا الشأن بعينه يبدو معنانا الصحيح ، وفى هذا تكون مماثلتنا لأبينا ، فيجب علينا أن نهب أنفسنا فى مختلف النواحى والمقاصد . وفى الفيدا [1] يسمى « واهب نفسه » واهب القوة انه لايكتفى بأن يهبنا نفسه ، فيهبنا القوة لكى نهب أنفسنا نحن

---

(١) الفيدا : من كتب الهند المقدسة

كذلك . لذلك نجـد في الأبنشاد يبتهل الى ذلك الذى يؤدى حاجاتنا « أن يكفل لنا العقل النافع » أن يمنحنا حاجتنا القصوى بأن يكفل لنا العقل النافع . ومعنى ذلك أنه لايكفي أن يعمل ليزيل حاجتنا بل ليمنحنا الرغبة والقوة لكى نعمل معه فى نشاطه وفى التدرب على عمل الخير — وهنا يتم اتحادنا به وحـده على التحقيق . والعقل النافع هو الذى يرينا حاجة ، « سوارثا » نفس أخرى كأنها حاجتنا . ويرينا أن سرورنا يشمل المقـاصد المتعـددة لقوانا المختلفة النواحى فى اعمـال الإنسانية فاذا عملنا بإرشاد ذلك العقل النافع نظمت مجهوداتنا . ولكنها لاتصبح شيئا آليا . لأنها شيء لانساق اليه بحافز الحاجة ولكن بدافـع الرضاء الروحى ، مثل هذا الجد لم يعد بعد محاكاة عمياء للجماعة واتباع دنيء لأصحاب البدع الحديثة . فأننا نرى فيه « أنه هو فى بداية الكون ونهايته » وأنه مصدر الوحى الذى يصدر عنه فى عملنا . وأخيرا فأنه لهنالك ، ومن أجله ، يتخلل الأمن والخـير والسرور ، أوجه نشاطنا جميعا .

يقول الابنشاد « أن العلم والقوة والعمل من طبيعته » ونحن انما نميل الى فصل السرور عن العمل ، لأن هذه الطبيعة لم تولد

خيفا ، فيوم عملنا غير يوم سرورنا ، لذلك نحتاج الى فسحة من عملنا ، ولشقائنا وتعاستنا لانجد فسحتنا فى عملنا . ان النهر يجد فسحته فى تدفق فيضانه . والنيران فى اندلاع لهيبها . والزهر فيما ينشره من أريج ، ولكننا فى عملنا اليومى لانجد مثل هذه الفسحة . وإذا كان عملنايتغلب علينا ويقهرنا فذلك لأننا لاندع أنفسنا تنصرف اليه ، وتقبل عليه بسرور .

أيها الواهب‌الينا نفسه ، حين تبدو لنا بالحبور ، دع نفوسنا تشتعل إليك كالنار ، وتفيض كالنهر ، وتعبق كالزهرة . وامنحنا قوة نحب بها ، ونحب بها الى النهاية‌حياتنا ، فى مسراتها وأحزانها فى ربحها وخسارتها ، فى ارتفاعها وهبوطها . وهبنا القوة الكافية حتى نرى ونسمع كونك ، ونعمل فيه بكل قوة ، واجعلنا نحيا بقوة تلك الحياة التى منحتنا ، ونأخذ بشجاعة ونعطى بشجاعة . هذا توسلنا اليك . واجعلنا نطرد عن عقولنا ذلك التصور الضعيف الذى يعد سرورك أمرا منفصلا عن العمل . ثقيلا قبيحا ، غير متساند . وحينما يحرث الفلاح الأرض الصلبة فسرورك يتدفق فى خضرة الحب . وحينما ينقل الأنسان الغابة المتشابكة ويسوى الأرض المتحجرة وينظم لنفسه سكنا ، فأن سرورك يعدها بالنظام والأمن .

تتوسل إليك ياخالق السكون وصانعه . ان تجعل تيار نشاط كونك الذى لا ينقطع . يهب كريح الربيع الجنوبية الهوجاء و يندفع إلى ميدان الحياة الأنسانية ، فيبعث روائح شتى الأزاهير وأصوات غابات عديدة . واجعل سكون حياتنا الروحية وجمودها ينطلق بصوت عذب رخيم . وقوانا الآخذه فى التيقظ والنهوض تنشد كمالا لا حد له ، فى الألياف والأزهار والأثمار .

تحقيق الجمال

الأشياء التى لاتكسبنا سرورا إما أن تكون عبئا على عقولنا نحاول أن نتخلص منه بأى ثمن . وأما أن تكون ذات نفع ، ومن ثم فهى وقتية وجزئية لنا . فإذا ما انقضى نفعها أصبحت عبئا على كاهلنا ؛ فتحوم حول تخوم إدراكنا لحظة من الزمن كالأفاق ثم تنصرف . ولا يكون شىء ما ملكا لنا بالمعنى الصحيح إلا إذا أصبح فيه سرور لأنفسنا .

ويبدو الجزء الأكبر فى هذا العالم كأنه لا يعنى شيئا لنا . ولكن يجب علينا أن لا نسمح بأن يظل كذلك . لأن فى ذلك تصغير لنفوسنا . لقد وهبت الدنيا لنا جميعا . وكل مالدينا من قوة ينتهى معناه الى الاعتقاد بأننا بمعونته ننال إرثنا فيها .

ولكن ما هى وظيفة إدراك الجمال فى مجال وعينا ؟ هل هى قائمة على تقسيم الحق الى أضواء قوية وظلال . وتقديمه الينا فى صورته المختلطة بين الجمال والقبح ؟ إذا كان الأمر كذلك وجب علينا أن نقر أن إدراك الجمال على هذا النحو من شأنه أن يقيم سوء الفهم والاختلاف فى كوننا هذا . ويضع سدا مانعا

على طول الطريق بين الشيء القائم بذاته و بين سائر الأشياء .

ولـكن ذلك ليس بالصحيح ، فما دام إدراكنا غير كامل فمن الواجب أن يكون لدينا تفريق بين الأشياء المعروفة ، والأشياء المجهولة . وتمييز بين الأشياء التى تسر والأشياء التى لا تسر . إلا أن بعض الفلاسفة يرى فيما يؤثر عنه : أن الإنسان لا يقبل أى حجر يقهره على عرفانه . وأن علمه ليخترق كل يوم منطقة جديدة ، كان يشار اليها فى خريطته بأنها لم تكتشف ولن يتيسر كشفها على الاطلاق . وكذلك فأن إدراكنا للجمال فى شغل على الدوام بفتوحه الجديدة . إن الحق موجود فى كل الوجود لذلك فان كل شيء فى الوجود موضوع لعلمنا ، والجمال موجود فى كل شيء ، و إذن فكل شيء فى الوجود يهبنا السرور .

كان الانسان فى تاريخه الغابر يرى فى كل شيء ظاهرة من ظواهر الحياة . و بدأ علمه بابتداع مميز دقيق يفصل بين الحياة والجمود . و إذ تقدم فى هذا الميدان أشواطاً بعد أشواط أخـذ المميز الذى يحد بين الشيء الحى وغير الحى يختفى شيئا فشيئا . وقد كانت هذه الخطوط الدقيقة المميزة فى بدء معرفتنا تساعدنا على المعرفة فلما تقدم إدراكنا أخذت فى الزوال شيئا فشيئا .

وفى الأبنشاد : أن سائر الاشـياء تخلق وتعيش فى سرور

لانهائى . ولكى ندرك مبدأ الخليقة يجب أن نبدأ أولا بتقسيم يميز بين الجميل وغير الجميل . ثم تنبعث معرفتنا بالجمال بقوه عنيفــة توقظ وعينا فى سباته الفطرى . وتصل الى هـــــدفها بقوة التمييز والتفريق . لهذا كانت معرفتنا بالجمال فى بدئها منصرفة الى ألوانه المرقشة التى تؤثر علينا بخطوطها وريشها . لا بقبحها . فلما نضجت معرفتنا تحول هذا الإختلاط الظاهر الى موسيقى موحدة الأنغـام فقد كنا فى بدء الأمر نفصل بين الجمال و بين مايحيط به . ولكننا فى النهاية أدركنا الوحـدة التى تنتظم سائر الأشياء . فاصبحت موسيقى الجمال وهى فى غير حاجة الى إثارتنا بالضجة العاليـة ، وقــــد نبذت القوة العنيفة وتجلت لقلوبنا بالحق الذى يرث الأرض بوداعته .

وقد حاولنا فى دور من أدوار حياتنا ، وفى فترة من تاريخنا ، أن نضع ثقافة معينة للجمال ، وجعلناها فى حيز ضيق ليـكون فيها نوع من الزهو للنخبة المختارة . فأدت الى الرخاوة والمبالغة . كما كان الحال مع كهان البراهمة ، إبان انحدار المدنية الهنـدية . حيث انحط إدراك الحق الاسمى ، وازداد تيار الخرافات .

وفى العصر الذى ظهر فيه علم الجمال . ظهر معه عهد الحرية .

فأصبح إدراك الجمال فى الأشياء الكبيرة والصغيرة أمراً ميسوراً وأصبحنا نراه أكثر مايظهر فى الوحدة التى تجمع فى نطاقها الأشياء المألوفة قبل الأشياء التى تؤثر فينا بتفردها . وهكذا حتى نصل إلى عصور الرجعية حيث كنا نحاول أن نتجنب كل مايحمل سروراً ظاهراً فى تصورنا للجمال ، وكان ذلك العمل يتوج بالعقيدة ومن ثم نستهوى فى غير مبالاة ، الى المبالغة فى تقدير الأشياء العامة حتى تصبح لها بالباطل صفة غير صفة العموم . وإذ أردنا الوحدة أفقنا الخصومات التى هى سمة سائر الرجعيات . وقد تبين لنا فى العصر الحاضر دليل هذا التأخر فى فهم فلسفة الجمال . ومنه يظهر أن الإنسان قد عرف أخيراً أن ضيق الادراك هو الذى يقسم وعى الجمال الى قبح وجمال . فاذا كانت لديه القوة التى تريد الأشياء منفصلة عن الاهتمام الشخصى ودعاوى الشهوة الحسية ، فأنه فى هذه الحالة وحدها يستطيع أن يرى الصورة الحقيقية للجمال الكائن فى سائر الوجود . وحينئذ يستطيع أن يرى أن مالا يسرنا لايتحتم قطعاً أن يكون غير جميل . فأن له جماله فى الحق .

ونحن إذا قلنا إن الجمال موجود فى كل مكان ، لانعنى أن كلمة القبح يجب أن تمحى من لغتنا . كما أننا نكون مبطلين . إذا قلنا أنه لا يوجد شىء اسمه الباطل . إن الباطل شىء لاشك

فى وجوده ، ولكن فى قوة إدراكنا ، لا فى نظام الكون ، باعتباره العنصر الذى يخالفه . وهكذا يظهر القبح فى التعبير الملتوى عن الجمال فى حياتنا ، وفى فننا لإدراكنا الناقص للحق . أننا نستطيع إلى حد ما أن نضع حياتنا ضد قانون الحق الماثل فى نفوسنا ، وفى كل شىء ، ونستطيع كذلك أن نروج للقبح بالتجائنا الى الناحية المضادة لقانون الوحدة الابدى الكائن فى سائر الوجود أننا فى إحساسنا بالحق ندرك قانون الخليقة ، وفى إحساسنا بالجمال ندرك وحدة الكون . ونحن إذ نعرف قانون الطبيعة ننشر سيادتنا على القوى الطبيعية ونصبح أقوياء ، وإذا عرفنا قانون طبيعتنا الاخلاقية نلنا السيادة على أنفسنا وأصبحنا احرارا . وكذلك كلما ازدادت الوحدة فى عالم الطبيعة ، ازداد نصيب حياتنا من مسرات الخليقة ، واصبح تعبيرنا عن الجمال فى الفن أكثر صحة فى احاطته وأحكامه . واذا وعينا انسجام الوحدة فى روحنا اصبحت احاطتنا بالسعادة التى تملأ روح العالم إحاطة عامة ، وأصبح تعبيرنا عن جمال حياتنا وهو يتجه عن طريق الخير والحب ، الى اللانهاية . ان آخر مايعنينا فى حياتنا هو أن نعرف « أن الجمال هو الحق والحق هو الجمال » يجب أن نحقق العالم أجمع فى الحب . لأن الحب يلده ، و يعوله و يعيده الى احضانه . ومن الواجب أن يكون

لقلوبنا ذلك التحرر الكامل الذى يمدنا بالقوة التى تساعدنا على أن نقف فى بواطن الأشياء ، ونتذوقها بتلك البهجة المجردة من الأغراض ، التى تعزى إلى براهما .

إن الموسيقى هى أنقى صور الحياة . لذلك فهى أقرب طريق للتعبير عن الجمال بالقالب والروح المتحدين فى نشاطهما

وقد يبدو أن اجتلاء اللانهائى فى صور الخليقة المحدودة هو الموسيقى بعينها . صامتة وظاهرة . فالسماء فى الليل تعيد منظومة النجوم ، وكأنها الطفل الذى تأخذه دهشة المفاجأة بسحر الأشياء الذى يبدأ فى تعرفها ، فما يزال يعيد ويكرر الكلمة الواحدة ، ويصغى اليها فى سرور لاينقطع . وحينما يحلولك الظلام فى ليلة ممطوة من ليالى شهر يوليه ، وينتشر على المروج . ويبسط المطر حجابا فوق حجاب على هدوء الأرض الراقدة ، تبدو نغمة المطر الذى يتكرر على وتيرة واحدة كأنها ظلام الصوت نفسه . وكأن روعة الأشجار الكثيفة المظلمة والشجيرات الشائكة المنتشرة فى العراء ، كرءوس السابحين بشعرها الملوث ، ورائحة الحشائش الرطبة والأرض المبللة ، وبرج المعبد المرتفع فوق كتل السواد المتجمعة حول أكواخ القرية ، علامات موسيقية ، تنبعث من

قلب الليل . وتندمج فى صوت المطر المتواصل الذى يملأ السماء

لذلك فان الشعراء المطبوعين الذين ندعوهم أنبياء ، يحاولون أن يعبروا عن السكون بالحان الموسيقى .

انهم قل أن يرمزوا بالتصوير للتعبير عن الصور والخطوط الممتزجة والألوان التى تظهر فى كل لحظة على شاشة السماء الزرقاء

ولهم عذرهم لأن الذى يصور يجب أن يحمل معه القماش والفرجون وكذلك صندوق الألوان . وأول لمسة يلمسها بفرشته بينها وبين الفكرة الكاملة بون شاسع . فإذا ما انتهى العمل وانصرف الفنان . تقف الصورة الأرمل منفردة. حيث تنقطع عنها لمسات الحب التى كان يواصلها الخالق الفنان

ولكن المغنى يحمل كل شىء فى جعبته . وأن الأنغام والاشارت الموسيقية لتصدر من صميم حياته . وليست هى بمواد تجمع من الخارج وأن فكره وتعبيره لصنوان. وكثيراً مايكونان توأمين . وفى الموسيقى يكشف القلب عن نفسه بطريق مباشر ، ولا يحتاج إلى شىء من الخارج .

لذلك فان الموسيقى وان كان عليها أن تنتظر حتى تنال كمالها كأى فن آخر ، فهى مع ذلك . فى كل خطوة تبرز جمال سائر

الوجود . وذلك أن مادة التعبير حتى لو كانت كلمات تعد حدوداً ولكن الموسيقى لاتعتمد مطلقا على أى معنى ظاهر . فهى تعبر عن الأشياء التى لاتعبر عنها الكلمات .

وفضلا عن ذلك فان الموسيقى والموسيقى صنوان لايفترقان فاذا انصرف المنشد فان غناءه يذهب بذهابه .

وان غناء العالم لن ينفصل عن صاحبه . فهو لايأتى من مادة خارجة عنه أيا كانت . لأنه سروره نفسه فى صورة لاتحد . وانه القلب الكبير يهز برجفته وجه السماء . وأن الكمال ليظهر فى كل حركة من حركات هذه الموسيقى . وهو ظهور الكمال فيما ليس بكامل وليس فى أنغامها نغمة نهائية ، وإن كانت كل منها تصور اللانهائى .

وماذا يحدث إذا أخفقنا فى فهم المعنى الصحيح لهذه الوحدة المنسجمة أليست كاليد تقابل الوتر وسرعان ما تخرج مالديها من النغمات عند لمسه . انها هى لغة الجمال والدعة التى تخرج من قلب العالم لتنصرف إلى قلوبنا .

وقفت أمس وحيداً فى الصمت الذى يتخلل الظلام وهو يغنى ألحان الأبدية . فلما انصرفت إلى الرقاد أغمضت عينى وهذه

الفـــــكرة الأخيرة تملأ فـكرى . و إنى لراقد فى غيبو بة نومى وما زال رقص الحياة فى جسمى النائم يتابع النجوم جنبا لجنب وإن القلب ليخفق والدم يثب فى العروق . وملايين الذرات التى يتشكون منها جسمى تهتز بنغمات متفقة ، مع أوتار القيثار الذى يهتز بيد السيد .

تحقيق اللانهائى

يقول الأبنشاد : « إن الانسان يصبح إنسانا بمعنى هـذه الـكلمة إذا استطاع أن يدرك الله فى هذه الحياة . فاذا لم يستطع ذلك كانت الطامة الـكبرى » ، ولـكن ما هى طبيعة الوصول إلى الله على هذا الوجه ؟ لا شك أن اللانهائى ليس شيئاً كسائر الأشياء المعهودة . حتى نستطيع أن نهىء له موضعه الدقيق بين ما نمتلـكه فى هذه الدنيا ، ليكون بمثابة حليف يعن علينا بالفوز فى شئوننا السياسية أو الحربية أو المالية أو منازعاتنا الاجتماعية . إننا لا نستطيع أن نضع إلهنا فى القائمـة التى نضع فيها بيوتنا الصيفية ، وسياراتنا أو رصـيدنا بالمصرف كما يحب كثير من الناس .

يجب علينا أن نفهم حقيقة الرغبـة التى تختلج فى نفس الانسان حين تشتاق روحه إلى إلهه . هل هى صادرة عن رغبته فى أن يضيف شيئاً جديداً — وإن جلت قيمته — إلى ما لديه من الأشياء ؟ كلا ولا شك . ان هذه الزيادة المتواصلة التى نضيفها إلى خزائننا هى عمل جد مضن . وفى الواقع أن الروح إذ تبحث عن الله

تبحث عن ملاذها الأخير الذى تلوذ به من هـذا الجمع المتواصل الذى لا حد له . انه ليس شيئاً إضافياً نبحث عنه ولـكنه النتيو (نتيانام) . الروح الدائمة فى سائر المخلوقات الزائلة . والسرور الأسمى الذى يمازج كل متع الحيـاة . لذلك فان الانشاد حين يعلمنا أن ندرك كل شىء فى براهما لم يكن يقصد بذلك أننا نبحث عن شىء إضافى أو نصطنع شيئاً جديداً ، « أعرف كل شىء فى الـكون الذى يظلله الله . واستمتع بكل ما يعطيك . ولا تدع عقلك يتركز فى الطمع فى المال الذى ليس لك » إنك إذا عرفت أن كل شىء كائن إنما يفيض بروحه ، وكل ما تناله هو هبة منه . أدركت اللانهائى فى النهائى . والواهب فيما يهب . وعرفت أن أحداث الحقيقة جميعاً لا تنال معناها إلا فى الحق الواحد . وان سائر الأشياء التى فى حوزتك ليس لها قيمة فى نفسها بل بذلك الاتصال الذى يربطها باللانهائى .

وعلى ذلك فلا يقال إننا نستطيع أن نجد براهما كما نجد سائر الأشياء الأخرى أو أننا نبحث عنـه فى شىء نؤثره على غيره . أو نسأل عنه فى موضع دون آخر .

فنحن لا نجرى إلى حانوت البدال ننشد عنده ضياء الصباح

وحسبنا أن نفتح عيننا لنجده أمامنا . وليس إلا أن نهب أنفسنا لنجد براهما فى كل مكان .

لهذا فان بودا ينصحنا بأن نحرر أنفسنا من صحبتها فى حياة النفس . فاذا لم يحل محلها شىء آخر ، أصح تأثيراً وأكثر إرضاء فان هذه النصيحة تصبح وليس لها معنى على الاطلاق ولا يستطيع أحد أن يتدبر تلك النصيحة بصفة جدية فضلا عن أن يتحمس لها ، وهى فقد كل شىء ، فى نظير لا شىء .

لذلك فان عبادتنا اليومية لله ، ليست فى الحقيقة طريقة للحصول على مطالبنا منه شيئاً فشيئاً . ولكنها الطريقة اليومية لاحاطة أنفسنا ، وإزالة سائر العوائق التى تعترض وحدتنا ، وامتداد وعينا بالعبادة والخير والحب.

وفى الابنشاد : دع نفسك تندمج جميعها فى براهما كما يندمج السهم فى هدفه .

وهكذا فان معرفتنا بأننا محاطون ببراهما ، إحاطة مطلقة ليست مجرد نوع من التركيز العقلى ، بل يجب أن تكون غرض حياتنا جميعها . وعلينا أن نعى اللانهائى فى أفكارنا وأعمالنا . وليكن تحقيق هذه الحقيقة فى كل يوم أيسر منه فى اليوم الآخر.

وهى «أنه لا يستطيع أحد أن يعيش أو يتحرك ، إذا لم تكن قوى السرور الشامل تملأ السماء » فلنحس قوة هذا النشاط اللانهائى ولنسر به.

وقد يقال إن اللانهائى بعيد المنال . فهو بالنسبة الينا كالعدم . أجل . ولكن إذا كانت كلمة المنال تشمل أى معنى من معانى الامتلاك . فأن اللانهائى حينئذ يكون بعيد المنال . إلا أنه يجب أن نضع نصب عقولنا أن أسمى متع الانسان ليست فى الملك . ولكن فى حالة من الأخذ الذى لا يعد استحواذا فى نفس الوقت ان مسراتنا المادية لا تترك مجالا للذى لايدرك ، وانها ككوكب الأرض الميت ليس لها إلا نطاق صغير حولها . ونحن حين نتناول الطعام ونشبع جوعنا يعد عملنا هذا امتلاكا تاما . وما دام شبعنا لم يتم فاننا نشعر بسرور فى تناول الطعام . إذ أن استمتاعنا بالطعام حينئذ يمس اللانهائى فى كل جانب . ولكن إذا وصل إلى التمام . أو بعبارة أخرى . حين تصل رغبتنا فى الطعام إلى الدرجة التى لا تدرك فيها . تصل إلى نهاية سرورها . والمجال فى سائر مسراتنا الفكرية أوسع والحد فيها أبعد كثيرا . وفى الحب العميق نجد أن الوصول إلى ما نريد ، والحرمان منه يسيران دائما

جنبا إلى جنب . وفى أناشيد الفاشيئاقا الرقيقة يقول المحب لمحبوبه « أحس أننى أبصرت جمال وجهك منذ اللحظة التى ولدت فيها ، ولـكن عيونى مازالت جائعة ، وكأنما أنا قـد حفظتك فى قلبى ملايين السنين ، ولـكن قلبى لم يشبع » .

من هذا يتضح أن اللانهائى هو الذى نبحث عنه فى مسراتنا فرغبتنا فى الثروة ليست رغبة فى مقدار معين من المال ولـكنها رغبة غـير معينة وأسرع متعنا إلى الزوال هى لمسات وقتية للابدى الذى لا يدركه الوقت . وتبدو مأسـاة الأنسانية فى محاولتنا الباطلة فى أن تمد حدود الأشياء التى لا يمكن أن تكون بغير حدود . ورغبتنا فى أن نصل إلى اللانهائى بزيادتنا الـكاذبة فى سلم النهائى .

يتبين من هذا أن رغبة روحنا الصحيحة ، هى أن نسمو على كل ما تستحوذ عليه وانها لتصيح وهى محاطة بالأشياء التى تلمسها وتحسها — « انى مرهقـة بما أنال . آه . أين ذلك الذى لا ينال أبد الآبدين » .

اننا نجد حينما نظرنا فى تاريخ الانسان ان روح الأباء هى أعمق الحقائق فى الروح الإنسـانية . واذا قالت الروح « أنا لا أريد

ذلك ، لأنني فوق ذلك . » فأنها تعبر عن أسمى حقيقة فيها . واذا كبرت البنت عن لعبتها و رأت أنهـــــا أصبحت تكبرها من كل الوجوه . نبذتها عنها . وكذلك نحن فيما نملك من الأشياء التي نعرف أننا أكبر منها . إن من البؤس الشديد أن نربط أنفسنا على الدوام بأشياء أقل منها . وهذا ما شعرت به «ماتريه» حين وهبها زوجها أمتعته في الليلة التي بارح فيها المنزل فسألته « هل هذه الأشياء المادية تساعد على الوصول إلى الدرجة العليا» أو بعبارة أخرى هل هي أنفع عندي من روحي ؟ فأجابها زوجها « انها ستغنيك فيما تملـكين من متاع الدنيا » فقالت في الحال ، « و إذن ماذا أفعل بها » وهكذا حين يدرك الانسان تمام الادراك متاعه ولم يبق له أي تأثير خادع عليـه يعرف أن روحه تسمو كثيرا على هذه الأشياء ، و يتحرر من أسرها . وكذلك الانسان يدرك روحه حقا إذا كبر عن حاجاته . وان تقدم الانسان في طريق الحياة الأبدية ليسير في سلسلة طويلة من الرفض والأباء

وليس عجزنا عن امتلاك اللانهائي بصفة قاطعة مجرد قضية عقلية ولـكنه عمل لابد أن نخبره . وفي هـذا الاختبار سرورنا فالطائر حين ينطلق في أجواز السماء يخبر في كل ضربة من جناحيه

أن السماء لاحد لها . وأن جناحيه لن يستطيعا أن يحملاه إلى ما ورائها . وفى هذا سروره . أما فى القفص فالسماء محدودة . وقد تكفيه من سائر الوجوه وتفى بجميع الأغراض التى يتطلبها الطائر فى حياته ، إلا أنها ليست أكثر من حاجاته الضرورية والطائر لا يستطيع أن يستمتع فى نطاق حدوده الضرورية . ويجب أن يشعر بأن ما لديه أكثر مما يمكن أن يحتاجه أو يدركه وبذلك ينال سروره

وكذلك ينبغى لروحنا أن تحلق فى اللانهاية فتشعر فى كل لحظة من اللحظات بأن سرورها الأكبر ومنتهى حريتها تنالهما فى احساسها بعجزها عن الوصول إلى غايتها .

إن سعادة الإنسان ليست فى أن يحصل على شىء من الأشياء ولكن فى أن يهب نفسه لما هو أكبر من نفسه فى الأفكار التى هى أكبر من حياته الفردية . أفكاره فى وطنه وفى الانسانية وفى الله . فانها تسهل عليه أن ينفصل عن كل مالديه وإن كانت الروح ولا يزال فى وجوده بؤس وخسة حتى يجد رأيا عظيما يستدعى كل مالديه ، ويخلصه من كل ما يربطه بمتاع حياته . أن بودا والمسيح وسائر أنبيائنا المجدين . يمثلون هذه الأفكار العظيمة

ويعرضون علينا الفرص لأحاطة كل مالدينا وحين تقـدم الينا طاسة النذور المقدسة نشعر بأننا لانستطيع أن نتأخر عن الهبة . ونجد أن سرورنا الصحيـح وحريتنا يكملان بالاعطاء لأنه يربط نفوسنا إلى هذا الحد باللانهائى

ان الانسان لم يبلغ حد الـكمال وإن كان فى طريقه اليه ، وهو على حاله الحاضرة ضئيل فاذا تصورناه يقف عند حالته هذه إلى الابد ، تصورنا أبشع جحيم يمكن أن يدور فى خلد إنسان . أما من حيث مصيره فهو لانهائى وفى ذلك نعيمه وخلاصه . وهو فى حاضره مشغول كل لحظة بما يستطيع أن يناله . وبما أتاه . أما فيما يتعلق بمصيره فهو متعطش إلى شىء يزيد عما يمكن الحصول عليه . ولن يفقده لأنه لن يحصل عليه .

إن دائرة وجودنا تجد مكانها فى عالم حاجتنا الضرورية . حيث يسعى الأنسان وراء ما يسد رمقه من طعام وما يدفئه من ملبس . وفى هذا النطاق نطاق الطبيعة تكون مهمته الحصول على الأشياء والانسان الطبيعى يشغل نفسه بزيادة ما يملك ولـكن مسألة الحول على الأشياء مسألة جزئية ، تحدها ضرورات الانسان ونحن لانقبل من شىء إلا بقدر ماتتطلبه حاجتنا كما أن الوعاء لايقبل إلا قدر سعته وصلتنا بالطعام هى صلة التغذية فحسب . وكذلك صلتنـا

بالبيت صلة السكن . ونعد من النفع أن يكون الشيء صالحا لسد حاجة معينة فحسب . لذلك فان حصولنا على الأشياء هو حصول جزئي ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، وسعينا في طلبها يعزى إلى نفسنا المحدودة . ولكن الجانب الذى يتجـه إلى اللانهاية في وجودنا لا يسعى وراء الثروة . ولكنه يسعى وراء الحرية والسرور حيث ينقطع سلطان الضرورة ، وتصبح وظيفتنا أن نكون لا أن ننال وعلك . نكون ماذا ؟ نكون شيئاً واحداً مع براهما . إذ أن نطاق اللانهائى هو نطاق الوحدة ولذلك فان الابنشاد يقول : إذا عرف الانسان الله يصبح إنسانا بمعنى هذه الكلمة وهو هنا إنما يصير ، لا يطلب الزيادة . ان الكلمات لا تكون جملا حين تعرف معناها ، ولكنها تصل إلى حقيقتها حين تكون هى والفكرة شيئاً واحداً .

إن الغرب و إن كان قد قبل أن يكون معلمه ذلك الذى أعلن فى شجاعة وحدته وأبيه ونصح أتباعه بأن يكونوا كاملين كالله فانه لم يركن على الاطلاق إلى فكرتنا التى تقول باتحادنا بالكائن اللانهائى . وأنه ليعلن ويصم بالكفر أى دعوى تتضمن أن يصير الانسان إلها . وهذا الرأى الذى يقول بالسمو الكلى ليس بغير شك

ما ينصح به المسيح ، ولعله لم يكن رأى متصوفة المسيحية . إلا أنه يبدو أنه هو الرأى الذى ساد فى بلاد الغرب المسيحية .

ولكن الحكمة الكبرى فى الشرق ، تقول إنه ليس من وظيفة روحنا أن تنال الله ، وأن تحاول الانتفاع به فى غرض مادى معين . وكل ما نتمناه هو أن نتقدم فى اتحادنا بالله يوما عن الآخر . وفى مجال الطبيعة وهو مجال التنوع نكبر بالمطالب المادية أما فى العالم الروحى ، وهو مجال الوحدة . فأننا نكبر بفقد أنفسنا فى الوحدة . والحصول على الشيء كما قدمنا . أمر جزئى بطبيعته محدود بالحاجة الخاصة فحسب . ولكن الشيء الكائن تام . لأنه يعزى إلى كليتنا ، ولا يصدر عن ضرورة ، وإنما يصدر عن صلتنا باللانهائى وهو مبدأ الكمال الكامن فى روحنا .

أجل يجب أن نكون براهما وأن لا نحجم عن إعلان ذلك ولا معنى لوجودنا إذا لم نكن نتوقع أن ندرك الكمال الأسمى الذى فيه . وإذا كان لنا مطلب لا نستطيع أن نصل اليه ، فأنه لا يعد مطلبا على الاطلاق .

ولكن أيمكن أن يقال إذن إنه لافرق بين براهما وروحنا الفردية ؟ لا شك أن الفرق واضح . سمه وهما أو جهلا أو ادعه

بأى اسم فانه موجود وتستطيع أن تقول ما شئت من تعبيرات ولا يمكنك أن تعبر . إن الوهم نفسه حق باعتباره وهما . إن براهما هو براهما . وإنه المثل الأعلى اللانهائى ولكننا لسنا كما نحن فى الحقيقة . إنما نحن نسير على الدوام نحو حقيقتنا . ونتقدم دائما لنصير براهما . وفى الصلة بين ما هو كائن وما سيكون القصة الأبدية للحب . وفى أعماق هذا الغموض ينبوع الحق والجمال اللذين يكفلان الخليقة فى سيرها الذى لا حد له .

وفى موسيقى الأنغام المتدافعة الأصوات ، يرتفع هذا النغم السار . «سأ كون البحر» وليس هذا بالادعاء الباطل ، ولكنه وداعة حقه ، لأنها الحقيقة . إن النهر لا يكون شيئاً آخر . وان على جوانبه ليظهر كثير من الحقول والغابات والقرى والمدن . وانه ليستطيع أن ينفعها بمختلف الوسائل ، وينظفها ويغذيها ويحمل نتاجها من مكان إلى آخر ، ولكن علاقته بها ليست سوى علاقة جزئية . ومهما سار بينها فانه يظل منفصلا عنها ، وهو لن يكون مدينة أو غابة .

ولكنه يستطيع أن يكون ، بل يكون بحراً ، وان الماء الجارى مهما يقل فله صلة بمياه المحيط العظيم الذى لا يتحرك . وانه ليسير

بين آلاف الصور والأشياء التي يعبر بها في طريقه ثم تجد حركته غايتها حين تصل إلى البحر .

فالنهر يستطيع أن يكون البحر ، ولكنه لا يستطيع أن يجعل البحر جزءا ورسالة منه . فاذا كان يضم عن طريق المصادفة صفحة من الماء . ويدعى أنه قد جعل البحر جزءا منه . فسرعان ما نعرف أن تياره ما زال يبحث عن راحته في عباب المحيط ، حيث لا يجد له شطآن إلى الأبد .

وكذلك روحنا تستطيع أن تكون براهما كما يصير النهر بحراً . وكل شيء عداه تلمسه من ناحية من نواحيها ثم تتركه وتسير ولكنها لن تترك براهما وتسير بعيداً عنه . فاذا أدركت روحنا مهمتها الأخيرة لكي تستريح في براهما فأن حركاتها جميعاً تصل إلى غايتها لأنه محيط الراحة اللانهائية ، الذى تعظم به حركاتنا التي لا تنتهى . وان كمال كون الخليقة هو الذى يجعل لنقصها هذا النوع من الجمال الذى يعبر عنه في الشعر والقصة والفن .

إن الشعر ليحتاج إلى فكرة ، وهذه الفكرة هى التى تنعشه وتحييه . فكل جملة فيه لا بد أن تمس هذه الفكرة . فأذا أدرك

القارىء هذه الفكرة الشاملة . فإن قراءة الشعر تفيض عليه بالسرور . ويصبح كل مقطع من مقاطعه وهو يتألق بنور الأبيات جميعها . ولكن إذا سار الشعر إلى غير حد . ولم يعبر عن الفكرة الكاملة . وكان كل همه أن يعطى صوراً منفصلة الحلقات . فأنه يكون مضجراً ويكون غير مجد فى النهاية . مهما يكن جماله . وما أشبه تقدم روحنا بالشعر الصحيح . فأن لها فكرة لانهائية إذا ما أدركت ، أصبحت سائر الحركات ولها معنى يفيض بالسرور .

ولكننا إذا فصلنا حركاتها عن هذه الفكرة الشامله . إذا لم نر الراحة النهائية وكان كل نصيبنا أن نرى الحركة الدائمة ، فأن الوجود يبدو لنا شراً شديداً فى بشاعته ويندفع نحو غايات طائشة لا حد لها .

أذكر أنه كان لنا فى عهد الطفولة مدرس كل همه أن يدأب على تكليفنا بحفظ كتاب النحو فى اللغة السنسكرتية جميعه عن ظهر قلب . وهو مكتوب بالرموز ، ولم يكن ليشرح لنا معناها . فما كادت تمضي بضعة أيام حتى نالنا الاعياء . ولكن لم يكن لنا أن نبدى رأياً على الاطلاق . وهكذا فقد كنا ننظر لدروسنا نظرة

المتشائم ، الذى يحصى دأب الأعمال الخانقة فى الحياة ولا يسمح له بأن يرى الراحة اللانهائية للكمال . بينما تنال هذه الأعمال توازنها كل لحظة فى ملاءمة وتوافق تام . واننا لنفقد كل السرور بالنظر إلى الوجود على هـذا النحو . إذ أننا بذلك نفقد الحق أجمع . ونحن نرى حركات الراقص فنتصور أنها تسير بمقتضى مصادفات شديدة فى طغيانها . ونصم الأذن عن الموسيقى التى تجعل كل حركة من هذه الحركات تتمشى من تلقاء نفسها فى صورة جميلة . ان هذه الحركات لتتمشى فى موسيقى الكمال إلى الأبد ، وتصير معها شيئاً واحداً ، حيث تكرس فى كل خطوة من خطواتها شتى الصور التى تخلقها .

وهذه حقيقة روحنا ، وسرورها . وهى أن تنمو وتزداد على الدوام فى براها . وتـكون سائر حركاتها موقعة على أنغام هذه الفـكرة النهائيـة . ويجب أن تهب كل خلائقها لروح الـكمال العليا .

فى الأبنشاد قول مأثور وهو : لا أظننى أعرفه تمام المعرفة ، أو أنى أعرفه ، ولا أظن حتى أننى لا أعرفه .

إننا لا نعرف اللانهائى عن طريق العلم ، ولـكن إذا كنا

لا نستطيع الوصول اليه ، فانه يكون لنا بمثابة العدم . والحقيقة أننا لا نعرفه وان كنا نعرفه .

ويتبين هذا فى قول آخر من الأبنشاد وهو « عن براهما ترتد الكلمات حائرة ، كذلك الفكر » ولكن الذى يعرفه عن طريق سروره يتحرر من جميع المخاوف .

أن المعرفة الفكرية معرفة جزئية ، إذ أن ذكاءنا ليس إلا آلة . وأنه جزء منا فحسب ولا يستطيع أن يمدنا بمعلومات عن الأشياء التى يمكن أن تقسم وتحلل وترتب صفاتها جزءا فجزءا . إلا أن براهما كامل وكل معرفة جزئية عنه لا تكون معرفة . ولكنه يعرف بالسرور والحب . لأن السرور فى كماله معرفة . وهو المعرفة التى تشمل سائر كياننا .

العقل يفصل بيننا وبين الأشياء التى تريد أن نعرفها ولكن الحب يصهرها ويعرف موضوعها . وتلك معرفة مباشرة لا يداخلها الشك . وهى كمعرفتنا أنفسنا إن لم تكن تزيد .

لذلك على حد قول الابنشاد «لا يستطيع العقل أن يعرف براهما» ولا تستطيع الكلمات أن تصفه . فهو يعرف بروحنا فحسب وبسرورها فيه وبحبها . أو بعبارة أخرى أننا نستطيع أن نصل

إليه بالوحدة ، وحدة وجودنا الكامل . يجب أن نكون مع أبينا شيئا واحدا ، ونكون مثله كاملين .

ولكن كيف يكون ذلك . أن الكمال النهائى لادرجة فيه فنحن لانتزيد شيئا فى براهما . فهو الكمال الفرد ولا زيادة فيه أو نقصان .

والحقيقة أن إدراك « البارأتمان » الروح الأعلى المتغلغل فى اعماق روحنا الفردية « انترامااتمان » يكون فى حالة من الكمال الكلى ولا يمكن أن نخاله شيئا غير شامل أوانه يعتمد على قوتنا المحدودة فى بنائه المتدرج . و إذا كانت صلتنا بالروح السماوى كلها من صنعنا فكيف نعتمد عليها كشىء له صحته وكيف تمنحنا العون والقوة ؟

أجل يجب ان نعرف أن فى الباطن من نفوسنا ذلك الذى لا يحكمه الزمان والمكان حيث تندمج حلقات التطور فى الوحدة. وفى مسكن الروح الدائم «آتمان» يتجلى الروح الأعظم «باراماتمان» كاملا نهائيا . كذلك يقول الابنشاد « أن الذى يعرف براهما الذى هو الحق والوعى الكامل اللانهائى كائنا فى أعماق الروح التى هى السماء العليا (سماء الوعى الباطنة) يتمتع بكل ما تصبو اليه نفسه بالاتحاد مع براهما العالم بكل شىء »

إن الاتحاد قد تم . والروح الأعلى « براماتمان » قد اختار بنفسه روحنا عروسا له وقد تم الزواج . ويقول « المانترام » فى ورده الهادىء « دع قلبك يكون مثل قلبى » ولا يتسع المجال فى هذا الزفاف للتطور حتى يقوم بدور سيد المهرجان . إن الأيشاه ، الذى لا يمكن ان يوصف إلا بكلمة هذا . ذلك الحاضر المباشر الذى لا اسم له ، سيظل هنا فى اعماقنا . و «الأيشاه» أو هذا . هو النهاية العليا (لهـذا) الآخر . (وتلك) هى الذخيرة الـكبرى (لتلك) الأخرى . وهى الـكن الأعلى (لذلك) الآخر . وهى السرور الأسمى (لهذه) . لأن زواج الحب الأسمى قدتم فى وقت غـير موقوت وهنا تستمر قصة الحب . وذلك الذى نلناه فى الا بدية اصبح ينال فى الزمان والمكان ، وفى السرور والآلام . وفى هـذا العالم والعوالم الأخرى . فأذا ما عرفت عروس الروح ذلك كل المعرفة امتلأ قلبها بالسعادة والراحة .

ومن ثم تعرف أنها كالنهر وصلت الى محيط كما لها من ناحية من نواحى وجودها ، وما تزال تصل اليه من ناحية أخرى . وهى من ناحيةفى راحة ابديةوكمال ، وفى حركة دائمةوتغير ، من الناحية الأخرى . فاذا عرفت كلا الطرفين كشىء متصل لاتنفصم عراه .

عرفت العالم بيتاها بحق معرفتها رب العالم ربا لها . ومن ثم تصبح عباداتها جميعا وهى عبادة حب وتتقدم اليها سائر متاعبها وما تضيق به من المشاق كتجربة لاظهار مايخالجها من حب . باسمة الثغر لتنال الرهان من حبيبها . ولكنها مادامت قابعة فى الظلام بعنادها . ولا تزيل عنها النقاب فهى لاتعرف حبيبها وانما تعرف العالم منفصلا عنه . وهنا يكون محلها محل الوصيفة ، وكان لها فى الحق ان تكون ملكة . ومن ثم تترنح فى شك ، وتنتحب فى اسى وغم « تمر من مسغبة الى مسغبة ومن نصب الى نصب ومن خوف الى خوف » .

انى لن انسى تلك الأغنية التى سمعتها لأول مرة فى الليلة البارحة تتردد وسط حفل مجتمع فى يوم عيد ، وهى «أيها النوتى خذنى الى الشاطىء الآخر » وانا لنسمع فى ضوضاء اعمالنا هذا النداء خذ بيدى الى الأمام ، وسائق العربة فى الهند يغنى وهو يقود عربته خذ بيدى الى الامام ، وكذلك البدال المتجول وهو يخرج بضاعته يغنى ، خذ بيدى

مامعنى هذا النداء ؟ اننا نحس اننا لم نصل إلى هدفنا ، ونعرف أننا مع مانبذل من جهد مضن لم نصل إلى الغاية ، وأننا

لم ننل حاجتنا . ويظل قلبنا كالطفل الذى لا يقنع بشىء ، يصيح ليست هذه ، ليست تلك ، ولكن ماهو الشىء الآخر . . اين الشاطىء الأقصى ؟

أهو شىء آخر غير الذى نحن فيه . أهو الاستراحة من كل شواغلنا والتخلص من مسئوليات الحياة جميعها ؟ كلا . اننا لنبحث عن نهايتنا فى صميم اعمالنا . وانا لنطلب العبور حتى ونحن واقفون . وكذلك شفاهنا حين تنتهى من تلاوة الصلوات ، لن تتوانى أيدينا عن العمل .

إن محيط سرورك فى الخلق ، وان هذا الشاطىء والشاطىء الآخر هما شاطىء واحد . وإذا قلت هذا شاطئى ، نفر الآخر وأخذ يبحث عن شعور الكمال الذى فى نفسى ، وظل قلبى ينادى فى طلب الآخر بغير انقطاع . وكل مالدى من هذا ، وذلك ، ينتظر كماله فى حبك .

وأنيتى تدأب جاهدة آناء الليل وأطراف النهار للوصول إلى مقر تعرف أنه مقرها . . والأسفاه أن متاعبها لاتنتهى مادامت لا تستطيع أن تقول إن هذا المقر مقرك أنت . وحتى تستطيع ذلك ستكافح ويظل قلبها ينادى أيها النوتى ، قدنى اليه ، فاذا

ما أصبحت داري هذه دارك . في هذه اللحظة ذاتها ، أسير الى الامام حتى ولو كنت سجينا بين جدرانها القديمة . و«أنا» هذه لاتستريح ، أنها تعمل لتنال مالايتفق وروحها على الإطلاق ، ولا تستطيع أن تمسكه وتستبقيه ابد الآبدين . وأنها في نضالها الذي تناضله لتضم بين زراعيها ماهو للجميع ، وتسيء الى الآخرين ، وتساءهي بدورها . ثم تنادي « خذ بيدي الى الأمام » فاذا ما استطاعت أن تقول « أن كل ما أعمله لك ، يبقى كل شيء كما هو ، وإن كان يسير الى الأمام » .

أين التقي بك إلا حيث تكون داري دارك . وأين أتصل بك إلا حيث يتحول عملي الى عملك . انني إذا تركت داري فأنني لا أصل إلى دارك واني اذا انقطعت عن عملي ، لن أستطيع أن أتصل بك في عملك . لأنك تسكن في أعماق نفسي وأنا أسكن فيك . أني لاشيء بغيرك وانك لاشيء بغيري .

لذلك نحن في دارنا وفي عملنا نبتهل «خذ بيدي إلى الأمام» . فهنا يموج البحر . وهنا يقف الشاطىء الآخر منتظراً وصولنا اليه أجل هنا الحاضر الذي لاينتهي . وليس ثمة له مكان ولا زمان آخر .